الفصل الثاني

بعض القضايا الفلسفية في فكر الإمام

أولاً : نظرته إلى الطبيعة الإنسانية :

- مقدمة.
- ماهية الإنسان .
- الفطرة الإنسانية بين الخير والشر .
- الإنسان والتكليف .

ثانياً : نظرته إلى المعرفة :

- مقدمة.
- طبيعة المعرفة .
- أدوات المعرفة .
- مصادر المعرفة .
- العناصر المؤثرة فى توجيه الإنسان إلى المعرفة .

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثاني

بعض القضايا الفلسفية في فكر الإمام

أولاً : نظرته إلى الطبيعة الإنسانية

مقدمة :

اهتم الفلاسفة ورجال الفكر التربوي بدراسة موضوع الطبيعة الإنسانية ، إما بغرض الدراسة الفلسفية الخالصة لمعرفة وفهم هذه الطبيعة وإما بهدف بناء فلسفة تربوية من خلال فهم ودراسة هذه الطبيعة الإنسانية ، لأن أي منهج يهدف إلى تربية وتقويم هذه الطبيعة وبدون فهم ومعرفة حقيقة هذه الطبيعة يكون جهد ضائع من غير فائدة .

فتعريف الإنسان ، وتحديد طبيعته في أي مذهب تربوي يكتسب أهمية خاصة ودور بارز لأن الإنسان هو حجر الزاوية ، وهو الأساس الذي يقوم عليه هذا المذهب ويُبنى في ضوئه هذا المنهج: " فهو محور العملية التعليمية ومناط جهودها ، فإذا كانت الغاية من التربية هي إعداد الإنسان ليكون خليفة الله في الأرض يعمرها ويطور الحياة عليها على هدى من الله ، لذا كانت الحاجة إلى تحليل طبيعة الإنسان كما خلقه الله والتعرف عليها وكيفية التعامل معها والاهتداء بالكيفية التي علم الله بها آدم وزوده بالخبرات اللازمة له لشق طريقه في الحياة على هذه الأرض، كل هذا كان ضرورياً لتأسيس المنهج المناسب لتربية هذا الإنسان".(١)

حيث أن فهم ومعرفة الطبيعة البشرية تساعد على وضع وإعداد المناهج الملائمة لطبيعة المتعلمين حتى تؤتى هذه المناهج ثمارها وتحقق أهدافها ، وكذلك معرفة وفهم المربى

(١) فؤاد محمد موسي : **علم مناهج التربية من المنظور الإسلامي** ، القاهرة ، دار مكتبة الإسراء للطبع والنشر والتوزيع ، ٢٠٠٤م ، ص ١٠٧ .

للطبيعة الإنسانية للمتعلم تمكنه من حسن اختيار الطريقة الملائمة لتربيته ، والمادة التي يعلمها له ، وفهم واكتشاف قدرات واستعدادات وإمكانات المتعلم ومدى قدرته على التعلم و تحديد واختيار أساليب الثواب والعقاب الملائمة له ، من أجل تحقيق الهدف من العملية التعليمية .

ولقد اختلفت النظرة إلى الطبيعة الإنسانية اختلافاً كبيراً ، ونظر إليها الفلاسفة والمفكرون من زوايا متعددة ، نظراً لأن الإنسان مخلوق شديد التعقيد ، وتحديد وفهم طبيعته أمر شاق ، فكل مذهب له أفكاره ومعتقداته ونظرته الخاصة عن الطبيعة الإنسانية فبعضهم ينظر إلى الطبيعة الإنسانية على أنها جسم فقط وهم أصحاب الاتجاه المادي الذين يقصرون حاجات الإنسان على المطالب الجسدية المادية ، وبعضهم ينظر إلى الطبيعة الإنسانية على أنها روح فقط وهم أصحاب الاتجاه الروحي الذين يقصرون حاجات الإنسان على المطالب الروحية ، وبعضهم ينظر إلى الطبيعة الإنسانية على أنها جسم وروح معاً فهو يؤمن بالثنائية في الطبيعة الإنسانية لذلك يهتمون بالجانب المادي والروحي معاً والبعض ينظر إلى طبيعة الإنسان على أنها خيرة ، وبعضهم ينظر إليها على أنها شريرة والبعض يجمع الاثنين معاً ، وغير ذلك من التصورات حول الطبيعة البشرية .

ولقد كان لاختلاف هذه التصورات حول الطبيعة البشرية دوراً هاماً في العملية التربوية حيث أن التربية هي : " عملية إيصال المربَّى إلى درجة من الكمال التي هيأه الله لها والإنسان هو محور العملية التربوية ، فالعملية التربوية بكل ما تشتمل عليه من أصول تربوية ، ونظريات، ومناهج ، وممارسات ، ومربين ، كلها تعمل وتتفاعل من أجل تهيئة الجو المناسب للمتعلم كي ينمو إلى درجة كماله الإنساني "[(١)] ، فإذا كانت التربية تهدف إلى

(١) علي أحمد مدكور : **مرجع سابق** ، ص ١٤٩ .

تحقيق النمو المتكامل في جميع جوانب الإنسان المختلفة فإنه لابد من فهم طبيعة هذا الإنسان حتى لا يحدث الاهتمام بجانب من جوانبه وإهمال جانب آخر لكي يتحقق النمو المتكامل .

ومن خلال الدراسة الحالية سوف يتم استعراض وجهة نظر الإمام حول الطبيعة الإنسانية، من حيث ماهية الإنسان هل هى جسم أم روح أم الاثنين معاً ؟ ، وهل طبيعة الإنسان خيرة أم شريرة أم الاثنين معاً ؟ ، وغير ذلك من الموضوعات التي تتعلق بدراسة وفهم الطبيعة الإنسانية عند أحد أعلام الإسلام .

ماهيـة الإنسان :

الإنسان عند أبى زهره مخلوق خلقه الله واستخلفه فى الأرض وكرمه على سائر خلقه، فقال تعالى

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ ﴾ البقرة: من الآية ٣٠

يقول الإمام فى تفسير الآية : " أعلم الله تعالى الملائكة وهم جمع ملك – بأنه سيجعل في الأرض من يسكن ظاهرها ، ويحكم فيها ، وينسل فقال

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

أي يكون ساكناً فيها بالخلافة عمن كانوا فيها ، ولم يذكر سبحانه وتعالى من كانوا فيها أهم كانوا من الملائكة أم كانوا من الجن ، أم كانوا خلقاً آخر ، فلنسكت عما ترك ولا نرجم بالغيب حتى لا نطلب ما ليس لنا به علم، وقد يقال: إن خليفة الخلافة عن الله تعالى فى الأرض بمعنى أن الله تعالى بما أعطاه من قوة العقل والتفكير والتدبير والسيطرة على نفسه وعلى ما فى الوجود فى الأرض التى خلفه الله تعالى عليها ليكون

خليفة خلافة نسبية عن الله تعالى ، والله تعالى غالب على كل أمره وأموره".(١)

فالإنسان هو خليفة الله فى هذه الأرض ، ميزه وفضله على سائر خلقه بأن منحه الإقامة على الأرض والسيطرة عليها فكان أعظم مخلوق عليها ، ولقد كرم الله الإنسان وأعلن هذا التكريم في كتابه المنزل فقال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ الإسراء:٧٠ .

يقول الإمام : " إن تكريم الله للإنسان ابتدأ كما رأيت منذ النشأة الأولى، ثم كان من تكريمه أن خلقه في أحسن تقويم ، ثم كان من تكريمه أن أعطاه سبحانه وتعالى العقل المميز ، ثم كان من تكريمه أن جعل له إرادة يختار بها بين الخير والشر ، فيعلو عن الملائكة إن اختار الخير ، وذلل كل الصعوبات التي تعترض طريقه ، ثم كان من تكريمه أن سخر له السماوات والأرض والنجوم ، وصار كل من في الوجود له، كما قال تعالى

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ البقرة : من الآية٢٩ ".(٢)

لقد أودع الله سبحانه وتعالى الإنسان مجموعة من الاستعدادات الفطرية ، والتي تؤهله لخلافته في هذه الأرض ، واكتشاف ما فيها من أسرار ، حيث يقول الإمام فى قوله تعالى :

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ البقرة :٣١، :

" بيَّن الله تعالى ما أودعه نفس الإنسان من العلم بالأشياء أو الاستعداد للعلم بها

(١) محمد أبو زهرة : زهرة التفاسير ، جـ١ ، **مرجع سابق** ، ص ١٩٤ .
(٢) **المرجع السابق** : جـ٨ ، ص ٤٤٢٦ .

أو أودع نفسه الاستعداد بعلمه بالأشياء كلها مما لا يعلمون هم ، والأسماء هي الأشياء من قبيل ذكر الاسم وإرادة المسمى إن جهل الملائكة بأسماء الأشياء وعلم آدم بها هو الأمر الذي ميز آدم على الملائكة ، خلقوا للطاعة ، ولا يعلمون طبائع الأشياء والوجود الأرضي إلا ما أعلمهم الله تعالى إياه، أما آدم فإن الله تعالى أودعه القدرة على العلم بالأشياء ، وكان في طبيعة نفسه التي أوجدها الله تعالى العلم بالأجناس أو مثلها ، فالإنسان يولد وفي استعداده العلم بالمثل في هذه الأرض ".(١)

ويقول : " في قوله تعالى

﴿ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ البقرة: من الآية ٣٠

يبين هذا النص حقيقة أن الإنسان أوتي استعداداً لعلم الأشياء ، أي علم الكون وما فيه ، لأن الله تعالى سخرها له ، ولا يتحقق ذلك التسخير إلا إذا أودع الله تعالى نفسه القدرة على العلم بها ، ولذلك أنبأ الملائكة بأسمائها ".(٢)

لقد وهب الله الإنسان مجموعة من القوى التي تمكنه من المعرفة والعلم والإدراك فلقد منَّ الله على الإنسان بالعقل الذي يميزه على سائر المخلوقات ، وهو الفارق بينه و بين الحيوان، فالعقل قوة أودعها الله في الإنسان يدرك بها حقيقة الأشياء والأسماء، إذا أحسن الإنسان استخدامه علا وارتفع ، أما إذا أساء استخدامه ، أو توقف به عند حد معين نزل به إلى درجة الحيوانية .

وقد منَّ الله على الإنسان بمجموعة من الحواس التي تمكنه من الإدراك والمعرفة وهذه الوسائل هى القوى المدركة التي زود الله الإنسان بها من سمع وبصر وأفئدة فقال

(١) **المرجع السابق** : جـ١ ، ص ص ١٩٥ ، ١٩٦ .
(٢) محمد أبو زهرة : المعجزة الكبرى القرآن ، **مرجع سابق** ، ص ٣٧٣ .

تعالى:

﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الملك:٢٣

وأوجب على الإنسان استخدام هذه القوى والحواس حيث وصف الله سبحانه وتعالى من تكون لديه هذه المواهب والقوى المدركة ولا يحسن استخدامها بأنهم كالأنعام بل هم في ضلال وجهل أزيد من الأنعام فقال تعالى

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ الأعراف:١٧٩،

يقول الإمام فى تفسير هذه الآية : " لهم قلوب لا ينفذون بها إلى الحق فيذعنوا له، وهذا معنى فقهها ، ولهم أعين لا يبصرون بها آيات الله في الكون من شمس لها ضياءوقمر له نور، وسماء ذات أبراج ، ورياح تحمل السحاب الممطر، يساق إلى بلد ميت فيحييه ، ولهم آذان لا يسمعون بها نداء الحق فيجيبوه، وآيات الله تتلى فلا يدركوها ويسمعون صوت المنادي "الله أكبر" وكأنهم لا يسمعون ، مادام هؤلاء لم ينتفعوا بهذه المواهب ، يصيرون كالأنعام لأن ما أعطاهم سبحانه من مواهب جعلوه هملاً فكأنهم لم يعطوه كالأنعام ، لأن من أعطي شيئاً ولم ينتفع به أضل ممن لم يعط شيئاً ".(١)

ويقول :" يبين سبحانه أن المواهب الإنسانية التي خلقها الله في الإنسان عهد بينه وبين ربه، فإن استجاب لفطرته ارتفع ، وإن خالف واتبع الشيطان هوى".(٢)

(١) محمد أبوزهرة : زهرة التفاسير ، جـ ٦ ، **مرجع سابق** ، ص ص ٣٠١٢ ، ٣٠١٣ .
(٢) _____ : المعجزة الكبرى القرآن ، **مرجع سابق** ، ص ٣٧٥ .

obeikandl.com

هذه هي القدرات والمواهب التي أودعها الله في الإنسان ، جعلته قادراً على تحقيق الحكمة من خلافته في هذه الأرض ، فهي ذات قيمة كبرى في حياة الإنسان ، فبدون هذه المواهب والاستعدادات ما كان الإنسان قادراً على النظر والتفكر والإدراك .

وعلى الرغم مما زود به المولى -عز وجل- الإنسان من قدرات واستعدادات وإمكانات تمكنه من إدراك حقيقة الأشياء والأسماء ، وتحقيق الخلافة في الأرض ، إلا أن هذه الاستعدادات والإمكانات محدودة ومقيدة فهي ليست مطلقة وكاملة ، وهذا التحديد والتقييد مرتبط بوظيفة الإنسان في هذه الأرض ، فقد قال الله تعالى في علم الإنسان

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥ ﴾ الإسراء: من الآية٨٥ ، وقال تعالى

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥ ﴾ البقرة : من الآية ٢٥٥

يقول الإمام في هذه الآية: " بيان لنقصان علم المخلوق بجوار علم الخالق ، والعلم المراد به المعلوم ، أي لا يحيطون بشيء من المعلومات التي يعلمها الله سبحانه وتعالى ، فعلم الإنسان لا يكون إلا بالقدر الذي يشاؤه الله سبحانه وتعالى ، ولذلك كان الاستثناء في قوله سبحانه ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ إذ أنه إذا كان علم الإحاطة الكامل لشيء لا يمكن أن يكون إلا لله العليم الخبير، فالله سبحانه وتعالى يعطي البشر من العلم ببعض الأشياء بالقدر الذي يريده سبحانه ويقدره ، وقد خلق البشر على استعداد له".(١)

فمهما أوتي الإنسان من قدرات واستعدادات تؤهله للإدراك والمعرفة، إلا أن علمه ناقص لا يصل إلى درجة الإحاطة ، سواء كان النقص فيما يجهله أو كان النقص فيما يعلمه بحيث لا يصل إلى درجة الكمال .

(١) محمد أبوزهرة : زهرة التفاسير ، جـ ٢ ، **مرجع سابق** ، ص ص ٩٣٨ ، ٩٣٩ .

وبرغم ما أودعه الله في طبيعة الإنسان من القدرات والاستعدادات إلا أن الناس مختلفون في هذه الاستعدادات والمواهب ، لتحقيق خلافة الإنسان في هذه الأرض ، حيث أن تعمير هذه الأرض يحتاج إلى اختلاف في المواهب والقدرات ، يترتب عليه تنوع في الوظائف بحيث يؤدي كل إنسان عملٌ معين ينتج عنه تحقيق نوع من التكامل والتناسق بين هذه الوظائف ، فقد قال الله تعالى

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ الزخرف : من الآية٣٢.

لذلك يقول الإمام : " إن العمل الإنساني طاقات مختلفة، فمن الناس من لا يحسن إلا العمل اليدوي ، ومنهم من يحسن الأعمال الفنية،ومنهم من يسمو فكره وعقله فيحسن الأعمال العقلية ، والتنظيمات التي تحتاج إلى فكر مستقيم".(١)

وبرغم ما أوتي الإنسان من مواهب وقدرات وما ميزه الله به على سائر المخلوقات، فهو أضعف من هذه المخلوقات في بعض جوانبه ، ففي قوله تعالى

﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ النساء: من الآية٢٨

يقول الإمام: " إن الإنسان ينشأ في هذا الوجود ضعيفاً ، لا يقوى على الانفراد بمواجهته إلا بعد زمن ليس بالقصير ، وإذا كانت رعاية الحيوان لأفراخه قصيرة ، فرعاية الإنسان لأولاده طويلة تمتد إلى خمسة عشر عاماً بينما الحيوان لا تمتد رعايته لأفراخه لأكثر من بضعة أسابيع أو أشهر على الأكثر".(٢)

(١)محمد أبو زهرة : التكافل الاجتماعي في الإسلام ، **مرجع سابق** ، ص ٤٩ .
(٢)محمد أبو زهرة: الولاية على النفس ، **مرجع سابق** ، ص ٩.

لذلك فإن الطفل في هذه المرحلة تثبت له عدة ولايات تقوم على رعايته وصيانته وتربيته، حتى يقوى ذلك المخلوق الضعيف ، ويمكنه الاعتماد على نفسه ، وهذه المرحلة من حياة الطفل هي الأساس الذي تقوم عليه بقية المراحل الأخرى ، لذلك كان من الضروري العناية بالطفل في هذه المرحلة والعمل على إصلاحه ، وتنشئته بطريقة سليمة تجعله نافعاً لنفسه ولمجتمعه ، " وإن الولاية على النفس هي التي تصلح بها الناشئة ، وهي التي تجعل المجتمع قائماً على التآلف ، ويقل فيه الشذوذ ، فلا يكون منحرفون ، ولا أحداث ولا يكون الأذلاء الذين يتخذون التسول مهنة يرتزقون منها ".(١)

وبعد أن تم الحديث عن خلق الله للإنسان وتكريمه بخلافته على هذه الأرض دون سائر المخلوقات، فضلاً عن تكريم الله له بسجود الملائكة له تعظيماً ، وما أودعه الله فيه من استعدادات فطرية وأدوات تمكنه من الإدراك والعلم والتفكر والنظر سواء بالعقل الذى ميزه به وفضله على سائر خلقه أو بالحواس التى تمكنه من معرفة وإدراك ما حوله ، وعن حكمة الله فى جعل الناس متفاوتين فى هذه القوى والاستعدادات ، وبرغم ما أوتى الإنسان وما منحه الله إلا أن علمه محدود بالقدر الذى يشاؤه المولى عز وجل ، حتى تتحقق الحكمة من وجوده على هذه الأرض وخلافته فيها ، وسوف يتم الانتقال إلى الحديث عن خلق الإنسان وبداية خلقه وبيان حقيقة الإنسان هل هو جسم أم روح أم الإثنين معاً.

يقرر الإمام أن الإنسان يتكون من جسم وروح معاً فيقول فى تفسير قوله تعالى

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ المؤمنون : ١٢

" السلالة : هي صفو الطين هنا ، والإنسان دخل في تكوينه صفو الطين مرتين : المرة الأولى - عندما خلق آدم من تراب فكان صفو الطين في تكوينه ، والثانية - أن الطين

(١) **المرجع السابق** : ص ١١ .

يدخل في تكوينه بعد أن صار كياناً إنسياً ، ذلك أن غذاءه يتكون من النبات والحيوان وكلاهما من صفو الطين لأن النبات ينبت من اختلاط الطين بالماء ، والحيوان آكل النبات فكانت سلالة من طين ".(١)

هذا بالنسبة لسيدنا آدم عليه السلام ، وهو أول مخلوق إنساني ، ابتدأ المولى عز وجل خلقه من طين الأرض ، فتكوَّن منه جسد آدم عليه السلام بقدرة الله تعالى ، أما بالنسبة لذريته : " فقد بين سبحانه وتعالى من بعد ذلك خلق الإنسان بالتناسل فقال تعالى:

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾المؤمنون :١٣- ١٤ ".(٢)

فخلق الإنسان وتكوينه يمر بعدة مراحل وأطوار ، فبعد أن كان ماء دافق في أصلاب الرجال ينتقل إلى رحم المرأة من خلال العلاقة الزوجية والاتصال بينهما ، فيصير نطفة في رحم الأم ، ويقول المولى عزوجل :

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ ﴾ الطارق:٥-٨.

" وإن الله الخلاق العليم يجعل الأرحام عندما يدفق فيها الماء يغلق عليه ويتربى فيه ، ويتغذى من الدم حتى يحين ميعاد الولادة ، والأدوار التي يذكرها الله تعالى بعد ذلك وهو في القرار المكين،حتى خلق خلقاً جديداً فقال تعالى:

(١) محمد أبو زهرة : زهرة التفاسير ، جـ ١٠ ، **مرجع سابق** ، ص ٥٠٥٢ .
(٢) _____ : المعجزة الكبرى القرآن ، **مرجع سابق** ، ص ٣٧٤ .

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ المؤمنون:١٤".(١)

والإمام في نظرته إلى ماهية الإنسان وحقيقته قد وافق أقرانه من علماء الإسلام حيث قرر وحدة التكوين في الإنسان فقال : " الكل ينتهي إلى نفس واحدة هي الجنس العام الجامع ، مهما يعلُ ابن آدم أو ينخفض فإلى هذه النفس ينتمي وبهذه الأخوة العامة يرتبط فالله تعالى خلق نفساً واحدةً تلتقي عندها كل الأنفس متشابهة متشاكلة ، وإن ذلك يقتضي التشابك في كل بني الإنسان ، ومع التساوي في الخلق يكون التساوي في الحقوق والواجبات ".(٢)

فالنفس الواحدة التي ينتهي إليها الجميع هو آدم أبو البشر فهو أصل الخلق والتكوين، فجميع البشر متحدون ومتجانسون في المنشأ ، ولكن الاختلاف يكون في الاستعدادات والقدرات والإمكانات التي يمنُّ الله بها على الإنسان .

ولا فرق بين الرجل والمرأة في أصل الانتماء كما ذكر الإمام : " طبيعة المرأة من طبيعة الرجل، وأنها ليست من جنس مرذول يجري الشيطان في عروقه ولا يجري في عروق الرجل ، وأنها لعنة الله في الأرض كما تجري عبارات بعض المتكلمين في المسائل الدينية من غير المسلمين ، وإن الآيات المتضافرة التي تدل على أن الزوج من نفس الزوج فيها إشارة إلى وجوب التجانس النفسي بين الزوجين،وأن الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف".(٣)

(١) محمد أبوزهرة : زهرة التفاسير ، جـ ١٠ ، **مرجع سابق** ، ص ٥٠٥٢ .
(٢) **المرجع السابق** : جـ٣ ، ص ص ١٥٧٤ ، ١٥٧٥ .
(٣) **المرجع السابق** : ص ١٥٧٥ .

ويستكمل الإمام مكونات الإنسان فيقول : " الشخص جزءان جسم ونفس وإن النفس تبقى بعد مفارقة الجسم ، فهي التي تذوق الموت كما ذاقت الحياة الدنيا ، فإسناد الذوق إليها لأنها باقية، وقد تغيرت حياتها من حال إلى حال ، فبعد أن كانت في غلاف في جسم من الطين، قد تجردت أبداً منه حتى تلتقي به يوم البعث والنشور ".(١)

والنفس عنده بمعنى الروح ، ففي بعض الكتابات يطلق عليها الروح ، وفي بعضها يطلق عليها النفس ، شأنه في ذلك شأن بعض علماء الإسلام ، " فبعض علماء المسلمين لا يفرق بين العقل والنفس والروح والقلب ويستخدمونها استخداماً مترادفاً أو متشابهاً".(٢)

وقد قرر ذلك الإمام في تفسير قوله تعالى

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ آل عمران : من الآية١٨٥

حيث يقول : " هنا إشارة بيانية أخرى رائعة هي أنه أسند ذوق الموت إلى النفس ولم يسنده إلى الشخص ، لأن النفس روح ".(٣)

فحقيقة الإنسان عند الإمام أنه مكون من جزأين الجسم الذي سبق ذكره في المراحل والأطوار التي يمر بها الإنسان في خلقه وتكوينه في رحم الأم ، والروح أو النفس التي يكون الجسم في حاجة إليها ، ويقول الإمام : " الروح فيما وراء المشاهد هي التي تسير هذا الوجود الإنساني ، وإن الله تعالى لم يخلق الإنسان إلا ليحاسب على ما قدم من شر أو خير ، وأنه

(١) **المرجع السابق** : ص ١٥٣٥ .
(٢) محمد منير مرسي : **فلسفة التربية اتجاهاتها ومدارسها** ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٣م ، ص ١٢٧ .
(٣) محمد أبو زهرة : زهرة التفاسير ، جـ ٣ ، **مرجع سابق** ، ص ١٥٣٥ .

سيرى ما اكتسب إن خيراً فخير وإن شراً فشر "[1] ، فالمكون الأول من مكونات الإنسان هو الجسم ذلك الجزء المشاهد المرئي والمحسوس ، وأما المكون الثاني وهو الروح ذلك الجزء الخفي الغامض الذي لا يعلم حقيقته وماهيته إلا الله سبحانه وتعالى ، حيث قال ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ الإسراء : ٨٥ .

يقول الإمام في معنى هذه الآية : " سألوه عن الروح ماهيتها أهي عرض أم جوهر والروح أهي الروح التي تكون في الأجسام فتجعلها تتحرك بإرادتها وتسير باختيارها ويقصد من الناس ، ويصح أن يراد منها النفس التي تتجه بالحق إلى مقاصدها وغاياتها فأجاب سبحانه، أو أمر نبيه أن يجيب بقوله﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ ، أي أن الروح من أمر إنشاء الله وخلقه وسر الله تعالى في إبداعه وتكوينه ، وما أوتي الإنسان إلا العلم بالمحسوسات واستخدام قواها ، وهو لا يعرف حقيقة الأشياء ولكن يعرف مظاهرها وقوانينها الظاهرة لديه ".[2]

وإضافة الروح وأمرها إلى المولى عز وجل لا يقضي أن يكون المقصود بها روح الله تعالى ، كما ذكر الإمام في معنى قوله تعالى ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ الحجر: ٢٩

" أن الله نفخ من روحه هو تصوير لخلق الحياة ، وإضافتها إليه سبحانه وتعالى لأنه خالقها ومنشئها ، وليس ثمة نفخ ، وإنما هو تصوير للخلق والتكوين ، وعلى هذا يكون معنى نفخنا فيه من روحنا، فليس فيها دلالة على أن عيسى من روح الله كما أن آدم ليس

(١) **المرجع السابق** : جـ ١ ، ص ١٠٥ .
(٢) **المرجع السابق** : جـ ٨ ، ص ص ٤٤٤٦ ، ٤٤٤٧ .

من روح الله ، وإنما هو من خلق الله تعالى ".(١)

وقد قسم الإمام الناس في إيمانهم بما وراء الحس من أمور غيبها الله سبحانه وتعالى عن عقولنا ومنها الروح إلى قسمين : ضالون ومتقون فالضالون هم الذين لا يؤمنون إلا بالمادة، ولا يعرفون غيرها ، وينكرون ما عداها ، ويقولون إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، ولا يؤمنون بشيء وراء ذلك ، ويقول قائلهم : الطبيعة خلقتنا ، ونرد إليها ، فلا يؤمنون بإله ولا بروح إلا أن تكون عرضاً من أعراض المادة ، وهؤلاء منهم الملاحدة ومنكرو الأديان ".(٢)

فهؤلاء قد وصفهم الإمام بأنهم ضالون ، أما القسم الثاني : " أمارتهم أنهم يؤمنون بالحس على أنه خاضع للغيب ، فهم لا يقصرون إيمانهم على ما يحسون وما يرون وما يبصرون، بل يؤمنون بأن وراء المادة عالماً كبيراً ، وأن مدبر الكون ومنشئه ، هو صاحب السلطان المطلق فيه، فلله تعالى محيانا ومماتنا "(٣) ، وهؤلاء وصفهم بأنهم متقون .

في قوله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ البقرة : من الآية١٤٣

يقول الإمام: " أي أمة مثالية لو اتبعت شريعة الله سبحانه وتعالى وقامت بحقها فهي مثالية لهذا المعنى الجامع بين المادة والروح ، وهي شريعة الفطرة لا تعاندها ولا تقاومها ، وهي شريعة الروح ترفع الإنسان إلى المعارج العليا ، وتهذب النفس فلا تنحط إلى سفساف المادة ، وهي تعطي الجسم حقه وحظه ولا تميت الغرائز بل تهذبها ، ولا تقتل شهوات النفس بل توجهها إلى الطريق المثمر المنتج ، وتبعدها عن الطريق الوبئ

(١) **المرجع السابق** : ص ٤٠٨٦ .
(٢) محمد أبوزهرة : زهرة التفاسير ، جـ١ ، **مرجع سابق** ، ص ١٠٤ .
(٣) **المرجع السابق** : ص ١٠٤ .

المهلك".(١)

فشريعة الإسلام هي شريعة الفطرة التي تقوم على العناية بالجانبين المادي والروحي في الإسلام ، حتى يتكامل الجانبان ، فهو ذو طبيعة مادية جسمية دنياوية ، وهو ذو طبيعة روحية إلهية مستمدة من المولى عز وجل ، لذلك جمعت الشريعة الإسلامية بين غذاء الروح وغذاء الجسم ، وضرورة الوسطية و الاعتدال فيهما .

فالعناية بالجسم وغذاؤه قد اشتملت عليه كثير من آيات القرآن منها قوله تعالى

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ ﴾الأعراف: ٣١،

وقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧ ﴾ المائدة :٨٧

وغيرهامن الآيات التي تؤكد على الغذاء الجسمي ، يقول الإمام : " ليس في الإسلام إذاً عبادة فيها تهذيب الجسم لتطهير الروح وليس فيه عبادة تتضمن معنى الانقطاع عن الدنيا ، فليس فيه رهبانية ".(٢)

وعن العناية بالغذاء الروحي يقول المولى عزوجل:

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ ﴾ النساء: من الآية١٣٤

و قوله تعالى

﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي

(١) محمد أبو زهرة : المجتمع الإنساني في ظل الإسلام ، **مرجع سابق** ، ص ٧٥ .
(٢) **المرجع السابق** : ص ٧٨ .

ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ القصص:٧٧.

يقول الإمام : " أن ما عند الله تعالى ، وما شرعه لعباده فيه صلاح الدنيا والآخرة وكذلك كانت شريعة الإسلام ليست فيها عبادة لمجرد تطهير الروح ، وإن كان تطهير الروح في حد ذاته أمراً حسناً ، ولكنه غاية من الغايات ، وليس هو الغاية القصوى" (١) ، لذلك كان لابد من الاهتمام والعناية بما يتعلق بالجسم والروح معاً.

وقد ذكر الإمام أن وسطية الإسلام وعنايتها بالجسم والروح يرجع إلى عدة أمور وهي : **أولها** : أنها منعت التجرد للعبادة في الصوامع والمعابد، والانقطاع عن الناس من غير عجز منعاً باتاً ، لأن العبادات مع شرفها وقوة الروحانية هي لإصلاح الجماعة الإنسانية وتهذيب النفس وتربية الضمير، **ثانيها** : أن العبادات لا تكون بمشقة مجهدة تمنع الاستمرار بل بمشقة معتادة يحتمل العابد فيها الاستمرار والمداومة ، **ثالثها** : أن تعذيب الجسم في ذاته معصية ، وأن مخالفة الفطرة من غير تهذيب روحي معصية ، فترك سنة الفطرة في الزواج منهي عنه ، والتعذيب في العبادة منهي عنه ، وإن القصد سلامة الروح وهداية النفس وليس القصد تعذيب الجسم ، وما كان ذلك كله إلا لأن الإسلام دين الحياة ، يريدها نقية طاهرة منتجة ومثمرة ، وفيها نفع الإنسان لأخيه الإنسان وتحقيق لتسخير الله تعالى الأكوان للإنسان ".(٢)

بعد هذا الحديث عن خلق الإنسان ، وحقيقته عند الإمام يتبين مدى توافق رأى الإمام مع أقرانه من علماء الإسلام الذين ينظرون إلى الإنسان وماهيته على أنها : "مركبة تركيباً عضويا يتلاحم فيه الجانب الجسمى مع العقلى والنفسى ، وهذا يعنى بالنسبة

(١) **المرجع السابق** : ص ٧٦ .
(٢) **المرجع السابق** : ص ص ٨٩ ، ٩٠ .

للتربية الإسلامية النظرة الشمولية للإنسان ، ومن المعروف أن الإسلام يقوم فى تربيته للإنسان على هذه النظرية الشمولية التكاملية".(١)

وكذلك الإمام يرى أن الإنسان يتكون من جزأين الجسم والروح وكل منهما يقوم على الآخر، لذلك أكد على ضرورة الوسطية والاعتدال فى العناية بهم سواء الجزء المرئى المشاهد وهو الجسم ، أم الجزء الخفى الغامض وهو الروح ، فكل منهما قائم على الآخر ومكمل له.

ثانياً : الفطرة الإنسانية بين الخير والشر :

اختلفت الفلسفات حول الطبيعة البشرية هل هذه الطبيعة خيرة أم شريرة وظهرت العديد من الاتجاهات ، ولكن الإمام أبا زهرة نظر إلى هذه القضية نظرة محايدة حيث ينظر إلى الطبيعة البشرية على أنها ليست خيرة بالفطرة ، كما أنها ليست شريرة بالفطرة ، وإنما هناك مجموعة من الاستعدادات والميول الفطرية التي تدرك الخير والشر وقد جعل المولى عز وجل هذه الميول في أصل الطبيعة البشرية .

وعن بداية النزاع بين الخير والشر يقول الإمام : " منذ هبط آدم على هذه الأرض وتوالد نسله من بعده ، والنزاع مستمر بين بنيه ، وكأنه قانون الحياة الذي لا مناص من الاعتراف به ، والإذعان لحكمه ، وقد نطق القرآن بهذه الحقيقة ، فقال في محكمه عندما نزل إبليس وآدم إلى الأرض

﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾

سورة البقرة:٣٦

(١) محمد منير مرسى : فلسفة التربية اتجاهاتها ومدارسها ، **مرجع سابق** ، ص١٢٩ .

وكان نزول إبليس إلى الأرض متسلحا بسلاح الغواية متوعدا به إذ يقول متحديا ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٤٠ ﴾ الحجر: ٣٩-٤٠ ، سببا في وجود نزاع مستمر بين الشر والخير وصارت في ابن الأرض نزعة إلى سفك الدماء بهذه الغواية المستمرة الدائمة ".(١)

فقضية الخير والشر في الطبيعية الإنسانية قديمة منذ بدء الخليقة ونزول سيدنا آدم إلى الأرض ونزول إبليس يتجه إلى الغواية والإفساد ، فكل إنسان يولد مزودا بالاستعداد للخير والشر ، وقد قرر ذلك الإمام بقوله : " يتنازع النفس الإنسانية نزوعان : نزوع الخير ونزوع الشر ، ولذلك قال تعالى

﴿ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ ﴾ الشمس٧-٨"،

وقال تعالى﴿ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ۝١٠ ﴾ البلد :١٠،

أي أودع الله تعالى نفسه العلم بالخير والاتجاه إليه ، وأودعها الشر والاتجاه إليه فمن غلبت عليه نزعة الشر كان من الأشرار ، ومن غلبت عليه نزعة الخير كان من الأخيار الأبرار، وكل ميسر لما خلق له ويتجه إليه ، وقد أودعه الله سبحانه وتعالى عقلا يميز به الخير من الشر والخبيث من الطيب ، ويعتبر بماضيه وحاضرهولابد من زواجر اجتماعية تنبه الضال حتى لا يستمر في ضلاله ، وتوضح له بالعيان عقبى الشر ، وثمرة الخير ".(٢)

فقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان ، وركب فيه قدرة تمكنه من معرفة الخير والشر، وهذه القدرة هي العلم الذي أودعه الله نفس الإنسان يميز به بين الخير والشر

(١) محمد أبو زهرة :**نظرية الحرب في الإسلام** ، القاهرة ،دار الفكر العربي ، ٢٠٠٤م ، ص٥ .
(٢) محمد أبوزهرة : زهرة التفاسير ، جـ ٤ ، **مرجع سابق** ، ص ص ٢١٣٥ ، ٢١٣٦.

فالطبيعة الإنسانية فيها الخير والشر والذي يوجه الإنسان إلى أحدهما تلك النزوع والميول التي أودعها الله نفسه ، ومن خلال العقل الذي منحه الله إياه للتمييز بين الحق والباطل وبين الخير والشر.

وعن هداية النفس البشرية ومعرفتها الخير من الشر يقول الإمام : " النفس البشرية قد هداها الله تعالى النجدين طريق الحق وطريق الباطل ، وألهمها فجورها وتقواها فإذا اتجهت إلى الخير سارت فيه ، وكلما كثرت خيراتها زاد فضلها ، وإذا انحرفت عن الطريق السوي ، أو سارت فيه فإذا نبهت من قريب عادت إلى الفطرة والحق وأمامها الأمارات والعلامات المبينة المرشدة ، وإذا لم تنتبه من قريب سارت في الشر، وبمقدار السير تأخذ أمارات الحق تختفى أمامها حتى تنطمس فلا ترى ، ولذلك لا يكون ثمة أمل في العودة إلى الجادة". (١)

فالخير والشر في معركة دائمة وفي نزاع مستمر، حيث أن : " العالم يتنازع فيه الخير والشر، والشر ربما يتغلب على الخير وفي الناس الأشرار والأخيار، وقد يغلب أهل الشر على أهل الخير وعدل الله يوجب أن تكون العاقبة للأخيار، وأن تكون للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، والله سبحانه وتعالى جعل الخير والشر لحكمة أرادها ، ليبتلي الإنسان إما شاكرا أو كفورا ، ولم يخلق الإنسان عبثا ، ولم يجعله سدى ، بل إنه مسئول عن فعله إن خيرا فخير وإن شرا فشر". (٢)

فكل إنسان مسئول عن أفعاله وكل ما يصدر عنه إن خيرا فخير، وإن شرا فشر والله سبحانه وتعالى سيجزي كل إنسان بعمله فهو: " يعلم عمل كل إنسان علم من يراه

(١) **المرجع السابق** : ص ١٩٧١ .
(٢) محمد أبو زهرة : المعجزة الكبرى القرآن ، **مرجع سابق** ، ص ٢٩٧.

ويبصره، فلا يغيب عنه سبحانه وتعالى مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض ، وإنه سبحانه وتعالى سيجزي كل نفس بما كسبت ، على مقتضى علمه الكامل ، وإن التسوية بين الجزاء والعمل هيالقانون العادل الذي وضعه وسنه رب العالمين ، فلا تستوي الحسنة ولا السيئة ولا يستوي الخير والشر ".(١)

فحكمة الله تعالى اقتضت وجود الخير والشر ، للتفريق بين العباد ، بين من يصبرون ويتجهون إلى مقاومة الشر ، وبين من يتجهون إلى الشر ويدعون له ، لذلك يقول المولى عز وجل في كتابه العزيز

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ البقرة : آية ٢٥١

يقول الإمام في تفسيرها : " يشير هذا النص إلى المعركة الدائمة بين الخير والشر والحق والباطل ، والفضيلة والرذيلة ، وأن سيطرة الرذيلة والشر والباطل فساد في الأرض ومقاومة الخير للشر دفع للفساد وفيه إشارة إلى أن مقاومة الشر بسلاحه من غير انحدار إلى الرذيلة رحمة بالناس ، فدفع الشر ورد الاعتداء رحمة ".(٢)

فتلك المغالبة هي في طبيعة الإنسان وفطرته ، فلولا دفع الله الناس الأشرار ببعض الناس الأخيار لفسدت الأرض وعم الدمار ، وكثر الأشرار ، وقد ذكر الإمام عدة طرق لدفع الشر بالخير : " منها : أن يكون الشر في خفاء ، والخير في جلاء ، فيكون انزواء الشر دفعا له ، وفي ظهور الخير دعوة إليه وحثا عليه ، ومنها : أن يقل عدد الأشرار الظاهرين، ويكثر عدد

(١) محمد أبوزهرة : زهرة التفاسير ، جـ ٣ ، **مرجع سابق** ، ص ص ١٤٨٦ ،١٤٨٨ .
(٢) _____ : المعجزة الكبرى القرآن ، **مرجع سابق** ، ص ٢٣٤ .

الأخيار البارزين ، فيدفع الله سبحانه وتعالى بتلك الكثرة الظاهرة ، شر تلك القلة الفاجرة ومنها : أن عمل الأبرار في الأمة يصلح الله به ما أفسده الأشرار مهما يكن عدد هؤلاء ".(١)

وهذه المغالبة والمدافعة بين الأخيار والأشرار دائمة ومستمرة وهي في طبيعة البشر بمقتضى فطرتهم التي خلقهم الله عليها وقد قرر ذلك الإمام بقوله : " أن ذلك التنظيم الحكيم هو من فضل الله ورحمته ، وإنعامه على خلقه ، وليس ذلك بواجب عليه سبحانه وتعالى وذلك لأنه خلق الناس وخلق معهم عقولا يعرفون بها خيرهم وشرهم ، فإن ساروا في طريق الخير والفلاح فلهم ما قصدوا إليه ، وإن ساروا في طريق الشر والفساد فإلى الهاوية يسيرون وعليهم وبال أمرهم وعاقبة عملهم إنما هو من فضل رب العالمين خالق الناس أجمعين ".(٢)

ففضل الله تعالى بتلك النعمة كثير ، ينعم بها كل الناس وهذا ما قرره الإمام بقوله: " أن النعمة التي أنعم الله بها على خلقه من دفع الفساد ينعم بها المؤمنون والمشركون والأشرار والأبرار ، لأن الفساد إذا عم لا يسلم منه أحد ، والخير إذا تحقق عم الجميع وقد دل على هذا المعنى قوله تعالى " على العالمين " فلم يقل على المتقين أو المؤمنين ، بل عم الخير على الناس أجمعين ".(٣)

يقرر الإمام من خلال ما سبق أن كل إنسان يولد وفيه استعداد للخير والاتجاه إليه كما أن فيه استعداد للشر والاتجاه إليه ، وقد منحه الله قدرة يميز بها بين الخير والشر وبين الحق والباطل ، والإنسان كائن اجتماعي بطبعه ، لا يمكن له أن يعيش منفردا بعيدا عن بيئته وبعيدا عن المحيطين به ، لذلك فإن للبيئة والعصر الذي ينشأ فيه الإنسان أثر في توجه الإنسان نحو الخير أو الشر ، وقد قرر ذلك الإمام بقوله : " إن البذرة الصالحة لا تنمو إلا

(١)محمد أبو زهرة : زهرة التفاسير ، جـ ٢ ، **مرجع سابق** ، ص ٩١١ .
(٢) **المرجع السابق** : ص ٩١٣ .
(٣) **المرجع السابق** : ص ٩١٣ .

بسقي ورعي ، وجو تتغذى منه ، وتعيش فيه ، فكل حي في الوجود يتأثر بالجو الذي يستنشق منه ، والبيئة التي تظله، فإن البيئات تفعل في نفس الإنسان مالا يفعله المربون ولذلك كان للعصر الذي يعيش فيه العالم الأثر الذي يوجهه ، وقد يكون الأثر من جنس حالة العصر ، فإن كان العصر فاسدا فسد الرجل ، وإن كان صالحا صلح الرجل ، وقد يكون التأثير عكسيا فكثرة الفساد تحمل على التفكير الجدي في الإصلاح ، وكثرة الشر تحمل على استحصاد العزائم للخير ".(١)

فالبيئة التي يوجد فيها الإنسان ، والعصر الذي ينشأ فيه له أثره في توجه الإنسان نحو الخير أو الشر كما ذكر ذلك الإمام بقوله : " إذا كانت كل النفوس متحدة في وجود المنازع وأنها مستعدة للخير والشر ، وإنما التربية والبيئات الاجتماعية والتوجيهات هي التي توجد الاختلاف بين المجتمعات، فلا يقال هذه نفس حر وتلك نفس عبد ، ولا يقال هذه نفس بدوي وتلك نفس حضري، فالنفوس واحدة وإنما يكون الاختلاف بسبب البيئات والمجتمعات ".(٢)

يدل هذا الكلام على أن كل نفس فيها استعداد للخير والشر وأن البيئة والعصر الذي ينشأ فيه الإنسان له أثر في توجه الإنسان ونزوعه نحو الخير أو الشر ، ومن أبرز هذه العوامل المؤثرة في توجيه الإنسان نحو الخير أو الشر كما ذكر الإمام كل من يتصل بهم الفرد من الأهل والأصحاب والرفقاء عند تفسير قوله تعالى

﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ الأعراف : ٢٠٢

بأنهم : " هم الذين يرتبطون معهم بصلة نسب ، أو صلة مودة ، أو صلة جوار، أو

(١) محمد أبو زهرة : ابن تيمية حياته وعصره - آراؤه وفقهه ، **مرجع سابق** ، ص ١٠٢ .
(٢) _____ : الوحدة الإسلامية ، **مرجع سابق** ، ص ١١ .

obeikandi.com

يتصلون بهم بأي صلة إنسانية ".(١)

فالإنسان يتأثر بمن يتصل بهم ويؤثر فيهم سواء أكانت تربطه بهم صلة قرابة أو أرحام بينهم ، أم كانت بينهم مجرد علاقة على أساس المودة والاحترام ، أم كانت بينهم صلة جوار بحيث ينشأ الأفراد مع بعضهم البعض ، ومن خلال هذه الصلات فإن الإنسان في علاقة دائمة مع من حوله ، وقد يكون لهؤلاء أكبر الأثر في توجيه الإنسان نحو الخير أو الشر فرفقاء السوء هم الذين يدفعون الإنسان نحو الشر والفساد ، ويحاولون غواية الإنسان وتزيين القبيح والتشجيع على الطغيان ، وقد ذكر ذلك الإمام بقوله : " الشر يتغذى بدعاة الشر ، وينمو ويغلظ سوقه بهم ، والفساد لا يستشرى في جماعة ويعمها بالشر إلا بالبيئة الفاسدة ، وبالرأي العام المزدول ، فإخوان السوء يمدون بالغي سواء أكانوا آحادا أم جماعات ، وكلمة إخوانهم تنطبق عليهم ، وإن من يرد إصلاح جماعة لا يصلح آحادها إبتداء ، إنما يصلح نية الإخوان الذين يسيطرون على جوها العام أولا ، ثم يصلحون الآحاد فينصلحون بالجولة الأولى ".(٢)

فهؤلاء الأصحاب والخلطاء يحاولون تزيين القبيح والتشجيع على الفساد والطغيان ، وهؤلاء الأفراد عندهم استعداد داخلي للشر وكأن إخوان السوء بمثابة المشجعين والموجهين لهم باستمرار نحو الشر ، لذلك ينبغي العمل على مقاومة الشر وردع المعتدي بشكل مستمر ، كما أكد ذلك الإمام بقوله : " كلما اشتد الفساد وجب العمل على الإصلاح وبمقدار قوة الشر تكون العزيمة في الخير ، فلا يشغل الشر عن الخير إلا وعم الفساد ، وضل العباد إلى يوم القيامة ، ولو كان استحكام الشر داعيا إلى السكون ما أقام رسول من رسل الله دعوته

(١)محمد أبو زهرة : زهرة التفاسير ، جـ ٦ ، **مرجع سابق** ، ص ٣٠٤٧ .
(٢) **المرجع السابق** : ص ٣٠٤٨ .

إلى الحق ، ولا رجع محمد بن عبد اللاه ﷺ بمجرد أن صدمه المشركون بالإنكار وبادروه بالعداوة والإيذاء ، وما كان ليفعل وقد قال له ربه

﴿ قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ الحجر: ٤١ ".(١)

من خلال ما سبق يتبين لنا أن الإمام يؤكد على أن الطبيعة الإنسانية ليست خيرة بالفطرة، أو شريرة بالفطرة ، وإنما إدراكها للخير أو الشر يرجع إلى مجموعة من الميول والاستعدادات الفطرية التي أودعها الله نفس الإنسان للتمييز بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، كما أن البيئة المحيطة به وأقرانه لهم أثر في توجيه الإنسان نحو الخير أو الشر.

الإنسان والتكليف :

خلق الله الإنسان وميزه على سائر المخلوقات ، فقد منح المولى عز وجل الإنسان عقلاً يميز به بين الخير والشر وبين الحسن والقبيح ، وهو مناط التكليف في الإنسان وسبب التفضيل على سائر المخلوقات ، فكان الإنسان كائن مكلف .

وعن بداية التكليف على الإنسان يقول الإمام : " خرج آدم وزوجه من الجنة ولم يكن فيها تكليف إلا أمرهما بألا يأكلا من شجرة معينة ، خرجا إلى هذه الأرض وكان التكليف ، وكان اختبار بني آدم فيها ، وعلى قدر ما يفعلون من خير يكون الجزاء ، وعلى قدر ما يكسبون من إثم يكون جزاؤه ، فالتكليف جاء عند نزول الأرض ، والتكليف على الجميع ، فكل ينال أثر عمله".(٢)

فبداية التكليف الحقيقي للإنسان كانت بهبوط سيدنا آدم وزوجه وإبليس إلى الأرض ، وخروجهما من الجنة التي لا مشقة فيها ولا مغالبة ولا جهد بل هي راحة واطمئنان

(١) محمد أبو زهرة : الدعوة إلى الإسلام ، **مرجع سابق** ، ص ص ٣٤ ، ٣٥ .
(٢) محمد أبوزهرة : زهرة التفاسير ، جـ ١ ، **مرجع سابق** ، ص ٢٠٢ .

obeikandl.com

وقرب من الملائكة ، إلى الأرض موطن التكليف والمشقة والتعب والاختلاف والقهر.

والتكليف كما عرفه الإمام هو : " أمر بما فيه كلفة ، وهي المشقة "(١) ، فالتكليف مجموعة من الأوامر والنواهي شرعها الله سبحانه وتعالى على خلقه سواء أكانت هذه الأوامر والنواهي عبادات أم معاملات أم غيرها من التكليفات الشرعية التي ينبغي على كل إنسان ضرورة الالتزام بها تنفيذاً لأوامر الله عز وجل والتزاماً بتوجيهات نبيه ﷺ فلم يكن الهدف من هذه التكليفات مجرد الالتزام بها فقط فإن " كل التكليفات الشرعية وخصوصاً العبادات لتربية النفس المؤمنة على التقوى ، وإيداع المهابة من الله تعالى في قلوب العباد"(٢) ، فكل إنسان يدرك أن هذه التكليفات من الله تعالى وليست من وضع البشر ، تنتظم في ضوئها الحياة الإنسانية ، وتتربى فيها نفس الإنسان المؤمن على الخوف من الله تعالى ، وعدم التجرؤ على حدود الله عز وجل ، حيث قال تعالى :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ ﴾ البقرة:من الآية ٢٢٩،

يقول الإمام في تفسير هذه الآية : " من يترك أحكام الله سبحانه وتعالى التي شرعها في قرآنه ، وبينها على لسان نبيه ﷺ ، فإنه بسبب تركه لها ظالم لنفسه وظالم لجماعته ، وظالم في الحكم بين الناس ".(٣)

ومن الملاحظ أن كل التكليفات الشرعية التي فرضها المولى عز وجل في حدود قدرة الإنسان على القيام بها ، لأن الله هو الخالق لعباده ، وهو أعلم بما يستطيعون القيام به وما لا يستطيعون ، لذلك قال المولى عز وجل

(١) **المرجع السابق** : جـ ٢ ، ص ١٠٩٠ .
(٢) **المرجع السابق** : ص ٥٦٧ .
(٣) **المرجع سابق** : ص ٧٨١ .

﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ البقرة من الآية : ٢٣٣

يقول الإمام في تفسير هذه الآية : " هي قضية عامة ، وقاعدة كلية في كل تكليفات الشارع الإسلامي ، يلاحظ فيها أن تكون في وسع المكلف ، وليس معنى الوسع هو الطاقةلأن الطاقة هي أقصى قدرة المكلف بحيث لا يستطيع الأمر إلا بمشقة وجهد ، أما الوسع فهو قدرة المكلف على الأمر مع بقاء فضل من جهده ، بحيث لا يستغرق العمل أقصى قدرته ، فجعل مناط التكليف ما تسعه قدرة المكلف قال تعالى

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ البقرة :من الآية ٢٨٦

تنبيهاً إلى أنه لا يكلف دون ما تنوء به قدرته ".(١)

لقد فرق الإمام بين الوسع والطاقة بصورة غاية في الدقة والوضوح ، فلو كانت التكليفات الشرعية في حدود الطاقة وهي أقصى غاية ما يبذله المكلف من جهد ومشقة لترتب على ذلك تقصير في بعض هذه التكليفات وتراخ في القيام بها ، لكن المولى عزوجل هو الخالق وهو العليم بقدرة الإنسان ، فدين الإسلام هو دين السماحة واليسر ، وقد قال تعالى

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ البقرة: من الآية ١٨٥

وقال تعالى :

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ الحج : من الآية٧٨ ،

فكانت كل التكليفات الشرعية مما يمكن احتمال المشقة فيها حتى يمكن تحقيقها.

والحكمة من التيسير والتخفيف في هذه التكليفات هو تحقيق الاستمرارية والمداومة على الالتزام بها ، " ولأن في ذلك استمرار على الطاعة ، والطاعة لله تعالى رياضة

(١) **المرجع السابق** : ص ٨٠٨ .

روحية تربي الوجدان ، وتجعله قوياً باستمرار، ومن غير أن تتمرد دواعي الهوى ، وأن الاستمرار على اليسير تؤدي إلى القدرة على الكبير ، ومن أجل ذلك جاءت النصوص الدينية الكثيرة تدعو إلى طلب السهل الميسر وتجنب الشاق المتعب ".(١)

فالتكليفات الشرعية التي حددها المولى عز وجل لها عدة خصائص ومميزات ملازمة لها، ذكرها الإمام بقوله : " أن فيها مشقة محتملة ، وأنها تكون في الوسع والقدرة من غير حرج ولا ضيق، وأنها تكون من غير مجهود شديد يكون أقصى الطاقة ".(٢)

هذه هي سمات وخصائص تكليفات الله عز وجل ، فهي تكليفات فيها مشقة وجهد، لأن كل عمل لابد فيه من جهد ومشقة ، ولكن تلك المشقة محتملة لدى البشر فمثلاً الصلاة من التكليفات الشرعية التي فرضها المولى عز وجل على الإنسان في اليوم والليلة خمس مرات وبالرغم أن فيها مشقة إلا أنها محتملة ويمكن للجميع القيام بها وكذلك باقي التكليفات، كما أن هذه التكليفات ليست هي أقصى طاقة الإنسان وجهده .

ومن فضل المولى عز وجل على عباده أن قرن بين كل تكليف وجزاؤه ، حتى يدرك كل إنسان حقيقة هذا الأمر المكلف به وما يترتب عليه ، ففي قوله تعالى

﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ البقرة : من الآية٢٨٦

يقول الإمام : " هذه الجملة السامية تبين أن كل تكليف قد اقترن بجزائه ، وأن كل امرئ سيجزى على الخير خيراً وعلى الشر شراً ، ولا ينتج التكليف نتائجه إلا إذا كان ثمة جزاء عادل ، والله سبحانه و تعالى لا يكلف إلا بما يكون في القدرة من غير إرهاق ، بل بإرادة حرة ويسر لا عسر فيه ، وذلك أساس للقيام بالتكليف بإرادة حرة ، ومقدرة غير مرهقة

(١) **المرجع السابق** : ص ٣٣٩ .
(٢) محمد أبو زهرة : زهرة التفاسير ، جـ ٢ ، **مرجع سابق** ، ص ١٠٩٠ .

وذلك يوجب الجزاء العادل ".(١)

وفي بيان جزاء كل تكليف تحفيز وتشجيع للإنسان على ضرورة القيام به ، فقد قال تعالى :

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ الزلزلة:٧-٨

وقال تعالى ﴿ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝١٦١ ﴾

آل عمران: من الآية١٦١

إن خيراً فخير و إن شراً فشر،وقال تعالى :

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾

آل عمران : من الآية٣٠ .

فكل إنسان مسئول عن تبعات ما كلف به وما يقوم به من عمل خيراً أو شراً وهنا يبرز مبدأ المسئولية الشخصية ، بحيث يكون كل إنسان مسئول عن تبعة أعماله، فكل ما ينال الإنسان من ثواب وعقاب إنما هو جزاء لما قام به وباشره ، ويؤكد ذلك الإمام بقوله : "التكليف شرف وهو يقتضي تحمل التبعات ولا سبيل لتحمل التبعات إلا أن ثمة يوم يجري فيه الحساب والثواب والعقاب﴿ وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ البقرة : من الآية ٤".(٢)

هذا الكلام السابق فيما يتعلق بالتكليفات الشرعية من حيث بدايتها وحقيقتها وطبيعتها وخصائصها، أما عن المكلف الذي تقع عليه هذه التكليفات ، فإن الله قد اختاره من بين مخلوقاته وحمله هذه المسئولية ، فقال تعالى :

(١) **المرجع السابق** : ص ١٠٩١ .
(٢) محمد أبو زهرة : المعجزة الكبرى القرآن ، **مرجع سابق** ، ص ٢٩٨ .

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ الإسراء : من الآية ٧٠

يقول الإمام فى تفسير هذه الآية : " كرم الله بنى آدم من وقت أن خلق وأمر الملائكة أن يسجدوا له ، وكان من تكريمه تكليفه فإن ذلك التكليف علو به من البهيمية إلى خاصة الإنسانية ومن هذا التكريم أن كان يبعث وينشر ، لأن هذه ضريبة العقل ولا يكون الحساب والعقاب إلا للعقلاء المختارين الذين يميزون بين الخبيث والطيب ".(١)

لقد اختار الله تعالى الإنسان من بين سائر مخلوقاته وحمله هذه المسئولية ، ولكن منحه قدرة تؤهله وتمكنه من حمل هذه المسئولية وهو العقل الذي هو مناط التكليف فى الإنسان ، وقد قرر ذلك الإمام بقوله : " عماد التكليف العقل ، لأن التكليف خطاب الله تعالى ولا يتلقى ذلك الخطاب إلا من يعقل ويدرك معناه ، وأن العقل ينمو ويتدرج وأنه يسير فى الكمال منذ الصغر ، وأنه لا يصل إلى حد التكليف إلا إذا اكتمل وتكامل نموه ، وأن نمو العقل متدرجاً أمر خفى لأنه يحدث آنا بعد آن حتى يظهر فى نهاية تدرجه كاملاً وأن هذا لابد له من ضابط ظاهر وهو البلوغ ، فكان البلوغ حداً فاصلاً بين نقصان العقل وكماله ، وعند بلوغ هذا الحد الفاصل يكون التكليف ".(٢)

فالعقل هبة من الله تعالى اختص بها الإنسان دون غيره حتى تتحقق الحكمة من خلافته فى هذه الأرض ، وحتى تتيسر له القدرة على الالتزام والقيام بكافة الأحكام والتكليفات الشرعية التى أمر بها المولى عز وجل .

يتبين من خلال ما سبق أن التكليف عند الإمام هو طلب ما فيه كلفة ومشقة ولكن الله تعالى خالق الإنسان وهو أعلم بقدرته وطاقته فقد جعل تلك المشقة وتلك

(١) محمد أبوزهرة : زهرة التفاسير ، جـ٨ ، **مرجع سابق** ، ص٤٤٢٥ .
(٢) _____ : أصول الفقه ، **مرجع سابق** ، ص ٢٩٨.

التكليفات فى حدود قدرة الإنسان واستطاعته ، وقد منح الله الإنسان العقل الذى هو أساس التكليف وهو سر خلافته فى هذه الأرض ، قد يصل بالإنسان إلى درجة الملائكة إذا أحسن الإنسان استعماله، وإذا أهمله الإنسان واتبع شهواته وأهواءه انحدر إلى درجة الأنعام فهو مناط التكليف فى الإنسان .

ثانياً : نظرته إلى المعرفة

مقدمة :

المعرفة مبحث أساسي من مباحث الفلسفة العامة ، التي اهتم بها الفلاسفة والمفكرون والعلماء ، حيث يتناولها كل منهم حسب تخصصه ، والمعرفة من القضايا الأساسية التي اهتم بها رجال التربية والتعليم ، فهي موضوع التربية ومنهجها ، بهدف تزويد المتعلمين بالحقائق والمعلومات والمعارف التي تسهم في تحقيق أهداف التربية والتعليم فكان من الضروري تناول قضية المعرفة وما يتعلق بها من جوانب ، وكيف نظر الإمام إلى المعرفة من حيث طبيعتها وأدواتها ومصادرها ثم العوامل المؤثرة في توجيه الإنسان إلى المعرفة وذلك من خلال كتابات ومؤلفات الإمام وهي كالآتي :

طبيعة المعرفة :

وردت تعريفات كثيرة ومتعددة للمعرفة تختلف باختلاف الفلاسفة ووجهة نظرهم واختلاف مجال تخصصهم ، حيث ينظر كل واحد منهم إلى المعرفة من زاوية تتفق مع رأيه ومع طبيعة تخصصه .

ويرى الإمام أن المعرفة هي : " العلم الجازم المطابق للواقع عن دليل "(١) ، فهو بذلك يؤكد على أن المعرفة هي العلم القائم على دليل وهذا الدليل موجود ومأخوذ من الواقع

(١) محمد أبوزهرة : زهرة التفاسير ، جـ ١ ، **مرجع سابق** ، ص ٣١١ .

وهو بهذا يربط بين المعرفة والواقع بهدف إدراك الحقيقة.

والمعرفة لا ترد للإنسان مرة واحدة ، ولكنها تمر بعدة مراتب وأطوار ، وقد قرر ذلك الإمام في تفسير قوله تعالى

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ النحل:٨٣،

حيث يقول : " إن للمعرفة مراتب ثلاث ، تبتدئ بتصور الأمور والوقائع ومنها النعيم فيتصور أن الله رازقه وخالقه ، فإذا تجاوز هذه المرتبة انتقل من التصور إلى الاعتقاد بالصحة فإذا اجتاز هذه المرحلة انتقل إلى المرحلة العليا وهي الإيمان، والإيمان مراتب مرتبة التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل ، ثم مرتبة الإذعان والخضوع لما اعتقد ، ثم ينتقل إلى أعلى المراتب وهي مرتبة العمل وهذه هي المعرفة الكاملة ، وهي المعرفة في أعلى درجاتها التي يصحبها عمل ".(١)

فمن وصل بمعرفته إلى حد التطبيق العملي لما تم تعلمه وإدراك حقيقته فهو في أعلى مراتب المعرفة ، لأن ذلك مبني على اقتناع الشخص وعلى عمق إدراكه ومعرفته بحقيقة هذا الشيء ، فيكون حريصا على تطبيقه ومتفانيا في الدفاع عنه.

وإذا كانت المعرفة كما قرر الإمام هي العلم الجازم الذي يصل إليه الإنسان مع مطابقة هذا العلم للواقع من خلال الاعتماد على الدليل للوصول إلى مرتبة الاقتناع والعمل فما حقيقة هذه المعرفة ؟ هل هي فطرية يولد الإنسان بها ، أم هي مكتسبة من خلال مجموعة من الأدوات عند الإمام وفيما يلي سوف يتم توضيح ذلك ....

يولد الإنسان وفي طبيعة نفسه القدرة على العلم بالأشياء والأجناس فهو استعداد

(١) **المرجع السابق** : جـ٨ ، ص ٤٢٤٠ .

فطري زود المولى عز وجل به الإنسان دون سائر المخلوقات وهذا ما قرره الإمام بقوله : " بهذه الخاصة التي وهبها الله تعالى للإنسان وهي الاستعداد للمعرفة والعلم بكل ما في الأرض ، فكان بذلك ممتازا على الملائكة ويتبعهم الجن ".(١)

ففطرة الإنسان التي خلق الله عليها البشر تتمثل في هذه القدرة وذلك الاستعداد الذي ميز الله به الإنسان حتى يتمكن من العلم والمعرفة ، ولكن هذا الاستعداد لابد له من أدوات تمثل النوافذ الخارجية التي من خلالها يدرك الإنسان حقائق الأشياء ، وبدون هذه الأدوات لا يستطيع الإنسان تحصيل العلم والمعرفة ، ومن هذه الأدوات التي منَّ الله بها على الإنسان ودورها في تحصيل العلم والمعرفة ما ذكره الإمام في تفسير قوله تعالى

﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ ﴾ النحل :٧٨

حيث يقول : " الله تعالى خلق الخلق ، وأودع كل نفس طريق العلم ، فأعطاه أدوات المعرفة كلها ، وجعل السمع يستمعون به ، والأبصار يبصرون بها ، والقلوب يدركون بها ".(٢)

هذه الحواس التي خلقها الله في الإنسان هي طريق الحصول على العلم والمعرفة من خلال المشاهدة والتجربة والمعاينة ، فالإنسان يولد ولا يعلم شيئا من هذه الحياة كما قال تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨ ﴾ النحل ٧٨

(١) **المرجع السابق** : جـ ١ ، ص ص ١٩٥ ، ١٩٦.
(٢) **المرجع السابق** : ص ١١٦ .

ويقول الإمام عن هذه الآية فى موضع آخر: " لا تعلمون شيئاً من العلم بالحياة ومشاربها ، ومن العلم بحق الله على عباده من إدراك عظمة خلقه في تكوين الإنسان من سلالة من طين، وجعله نطفة في قرار مكين ، وجعل النطفة علقة والعلقة مضغة وجعل المضغة عظاما، ثم أخرجه من ضيق الرحم إلى سعة الوجود وهذا ما يشير إليه قوله ﴿ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ ﴾ يخرج الجنين من بطن أمه لا يعلم شيئا من طرق الحياة ، ولكن يعطيه الله تعالى أسباب العلم بهذه الحياة وما يجري فيها وهذا قوله تعالى ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ ﴾" (١) ، فكانت هذه الأدوات هي السبيل والطريق إلى تلك المعرفة واكتشاف حقيقة الأشياء وطبيعتها ، وهي نوافذ المعرفة بالنسبة للإنسان ، من خلالها يتصل الإنسان بالواقع المحيط به .

وأيا كان علم الإنسان الذي يكتسبه بتلك الأدوات التي أودعها الله فيه ، فإنه قليل ضئيل محدود إلى جانب علم الله تعالى ، ففي تفسير قوله تعالى﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ البقرة: ٢٥٥ ، يقرر الإمام أن : " هذه الجملة السامية بيان لنقصان علم المخلوق بجوار علم الخالق ، والعلم المراد به المعلوم ، أي لا يحيطون بشيء من المعلومات التي يعلمها الله سبحانه وتعالى وهذه الجملة السامية تدل على نقص العلم البشري من ناحيتين : أولاهما : أن أحدا من البشر لا يستطيع أن يعلم كل شيء ، بل إن ما يجهل أضعاف كثيرة مما يعلم كما قال تعالى:

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ الإسراء: ٨٥

الثانية : أن الجزء الذي يعلمه البشرمن الأشياء علمه فيه ناقص كل النقص وهذا ما قرره سبحانه في قوله

(١) محمد أبو زهرة : زهرة التفاسير ، جـ ٨ ، **مرجع سابق** ، ص ٤٢٣٠ .

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾

أي أنهم لا يعلمون شيئا واحدا علم إحاطة واستغراق لكل ما يشتمل عليه،وعلم الإحاطة هو العلم الكامل " .(١)

فمهما أوتي الإنسان من العلم فهو إلى جانب علم الله تعالى يتصف بالنقصان وهذا العلم الذي يصل إليه الإنسان لا يكون إلا بالقدر الذي يشاؤه الله ، وقد قرر ذلك الإمام بقوله : "علم الإنسان لا يكون إلا بالقدر الذي يشاؤه الله سبحانه وتعالى ولذلك كان الاستثناء في قوله (إِلَّا بِمَا شَآءَ) إذ أنه إذا كان علم الإحاطة الكامل لشيء لا يمكن أن يكون إلا لله العليم الخبير، فالله سبحانه وتعالى يعطي البشر من العلم ببعض الأشياء بالقدر الذي يريده سبحانه ويقدره ، وقد خلق البشر على استعداد له "(٢) ، فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وهو أعلم بما يحتاج إليه من العلم ، وما هو في حدود قدرة الإنسان واستطاعته .

من خلال ما سبق يتضح لنا أن الله سبحانه وتعالى قد منح الإنسان قدرة واستعدادا داخليا لإدراك ومعرفة حقيقة الأشياء والأجناس أو مثلها ، وهذه القدرة هي التي امتاز بها الإنسان على سائر المخلوقات وبدون هذه القدرة لا يستطيع الإنسان تحصيل العلم والمعرفة ، فهذه القدرة وهذا الاستعداد أمر فطري في داخل كل إنسان ، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد منَّ على الإنسان بهذه القدرة فإنه في حاجة إلى مجموعة من الأدوات تمكنه من اكتساب العلم والمعرفة ، فهي بمثابة النوافذ التي يدرك بها الإنسان العالم الخارجي وما يدور حوله ، وبدون هذه الأدوات لا يستطيع الإنسان إدراك الأسباب للعلم

(١) **المرجع السابق** : جـ ٢ ، ص ص ٩٣٨ ، ٩٣٩ .
(٢) **المرجع السابق** : ص ٩٣٩ .

بهذه الحياة ، فهذه الأدوات هي التي تمكن الإنسان من ترجمة هذا الاستعداد للعلم إلى معرفة حقيقية من خلال الإدراك الواقعي لحقائق الأشياء وطبيعتها ، وبذلك يمتاز الإنسان على سائر المخلوقات بقدرته على اكتساب العلم والمعرفة من خلال ما منحه الله من أدوات .

أدوات المعرفة:

خلق الله الإنسان قابلا للتعلم ، وأنعم عليه بمجموعة من الوسائل والأدوات والمنافذ التي تمكنه من الحصول على العلم والمعرفة بمختلف أشكالها ، بحيث يكون الإنسان مستعدا لاكتساب هذه المعارف والمعلومات من مصادرها المختلفة، وفيما يلي سوف يتم عرض هذه الأدوات عند الإمام وهي كالآتي :

أولاً : العقل :

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان وفضله على سائر المخلوقات : " وكان سبب تفضيلهم أن الله سبحانه وتعالى قد منح الإنسان وزوده بقدرة واستعداد للعلم بالأشياء والأسماء ، مما جعله جديرا بالخلافة في هذه الأرض ، وبما أعطاه من قوة العقل والتفكير والتدبير ، والسيطرة على نفسه ، وعلى ما في الوجود في الأرض التي خلفه الله تعالى عليها ليكون خليفة خلافة نسبية عن الله تعالى ، والله تعالى غالب على كل أمره وأموره".(١)

فقد أودع الله في طبيعة نفسه العقل الذي هو أساس القدرة على العلم بالأشياء والأجناس والأسماء، ويتحدث الإمام عن معنى العقل فيقول : "العقل مصدر عقل بمعنى منع، ثم أطلق على ما يكون به الإدراك السليم ، لأنه يمنعه من القبيح ، ويعقله على الجميل".(٢)

(١) محمد أبو زهرة : زهرة التفاسير ، جـ١ ، **مرجع سابق** ، ص ١٩٥ .
(٢) **المرجع السابق** : ص ٢١٦ .

ويقول عنه : " العقل البشري طلعة يتطلع إلى علم ما لم يعلم ، وتعرف ما يجهل دائما، وخصوصاً عقول العلماء المخلصين فإنهم يطلبون المزيد دائما ".(١)

بهذا المفهوم يؤكد الإمام على أن العقل أداة من أدوات العلم والمعرفة عند الإنسان، فهو الموجه والمرشد للإنسان نحو الكشف عن حقيقة الأشياء ، ومعرفة ما يجهله الشخص والعقل كما ذكر الإمام هو : " عماد التكليف ، لأن التكليف خطاب الله تعالى ، ولا يتلقى ذلك الخطاب إلا من يعقل ويدرك معناه ".(٢)

فالعقل هو أساس التكليف في الإنسان ، فمتى اكتمل عقل الإنسان ، ووصل إلى درجة التمييز وقع عليه التكليف ، حيث يكون مطالبا بكل التكليفات الشرعية التي أمر الله بها وجاءت على لسان نبيه ﷺ ، سواء في القرآن الكريم أو السنة النبوية فهما مصدر الأحكام والتكليفات الشرعية ، واكتمال العقل ونموه لدى الشخص لا يحدث جملة واحدة بل إنه يسير به في نمو وتدرج كما ذكر ذلك الإمام بقوله : " أن العقل ينمو ويتدرج ، وأنه يسير في الكمال منذ الصغر ، وأن نمو العقل متدرجا أمر خفي ، لأنه يحدث آناً بعد آن حتى يظهر في نهاية تدرجه كاملا ، وأن هذا لابد له من ضابط ظاهر ، وهو البلوغ ، فكان البلوغ حدا فاصلاً بين نقصان العقل وكماله ، وعند بلوغ ذلك الحد الفاصل يكون التكليف ".(٣)

والعقل في إدراك الحقيقة والمعرفة ، والوصول إلى الصواب يقوم على عدة أمور ذكرها الإمام بقوله : "**أولها** : الميزان بين الأشياء والأفعال فيتخير أنقاها وأثبتها وأصلحها وأكثرها نفعا ، **ثانيها** : القسطاس المستقيم الذي يكون ميزان الأشياء وحكم الموازنة فيها **ثالثها**: أنه يقدر خير الأمور بأنه ما يكون باقيا ولو كان في آجل".(٤)

---

(١) محمد أبو زهرة : أبو حنيفة حياته وعصره - آراؤه وفقهه ، **القاهرة** ، **دار الفكر العربى** ، **١٩٤٧م** ، ص ٢٩٨ .
(٢) _____ : أصول الفقه ، **مرجع سابق** ، ص ٢٩٨ .
(٣) **المرجع السابق** : ص ٢٩٨ .
(٤) محمد أبو زهرة : زهرة التفاسير ، جـ ١٠ ، **مرجع سابق** ، ص ٥٠٩٦ .

فالعقل هو سبيل الهداية والرشاد للإنسان يصل به إلى الحق بخلاف الأهواء والشهوات التي تصرف الإنسان عن الحقيقة وتؤدي به إلى الضعف الفكري ، والانحراف العقلي ، والانصراف إلى اللذات الوقتية التي لا تدوم ، بخلاف الاعتماد على العقل فإنه يؤدي إلى الموازنة بين حقيقة الأشياء والكشف عن ماهيتها ، وإدراك مدى نفعها وضرها بالنسبة له من خلال إعمال عقله ، وسمو تفكيره ، وبذلك تتحقق المنفعة والخير بالنسبة له والوصول إلى الحقيقة .

ونظرا لأن العقل هو أساس العلم والمعرفة ، وهو طريق البشرية في إدراك حقائق الأشياء وكنهها لذلك كان من الضروري ترك الحرية في التفكير ، حتى يتوفر الجو المناسب كي ينتج العقل ويثمر ، وقد أكد ذلك الإمام بقوله : " إن تقدم الإنسانية في العلوم والمعارف لا يتم إلا إذا توافر للعلماء ما لهم من حرية الفكر والنظر ، وإن الإسلام قد حرص عليها في كثير من آي القرآن ، ودعا إلى النظر إلى ما في السماوات والأرض ، وإن قضايا الإسلام كلها تتفق مع ما يحكم به العقل ".(١)

وعن كيفية المحافظة على العقل يقول الإمام : " المحافظة على العقل هي حفظه من أن تناله آفة تجعل صاحبه عبئا على المجتمع ،ومصدر شر وأذى للناس ، والمحافظة على العقل تتجه إلى نواح ثلاث :

(١) " أن يكون كل عضو من أعضاء المجتمع سليما يمده بعناصر الخير والنفع ، فإن عقل كل إنسان ليس حقا خالصا لصاحبه ، بل هو باعتباره لبنة في صرح ذلك المجتمع يتولى بعقله السليم سداد خلل فيه ، فكان حقا على المجتمع كله أن يتولى العمل على سلامة

(١) محمد أبوزهرة : تنظيم الإسلام للمجتمع ، **مرجع سابق** ، ص ١٨٦ .

ذلك العقل الذي يعد عنصرا في بنائه ".[1] ، حيث يؤكد الإمام على ضرورة تعاون كل قوى المجتمع ، بحيث يعمل كل إنسان في حدود قدراته وطاقاته بهدف تحقيق تكامل في جميع جوانب المجتمع ، والعقل هو أساس ذلك ، فكان من الضروري الحفاظ على عقل كل إنسان باعتباره أحد أفراد هذا المجتمع وأحد عناصره .

(٢) " أن من يعرض عقله للآفات يكون عبئا على الجماعة لابد أن تحمله ، فإذا كان عليها عبئه عند آفته ، فعليه أن يخضع للأحكام الرادعة التي تمنعه من أن يعرض عقله للآفات "[2] ، بحيث يلتزم بكافة الأحكام الرادعة ، والزواجر الاجتماعية في حال تعريض العقل لآفة من الآفات التي تمنعه من القيام بدوره ومهامه في حدود الزواجر التي رسمها الشارع الإسلامي حفاظا على العقل الإنساني .

(٣) " أن من يصاب عقله بآفة من الآفات يكون شرا على المجتمع يناله بالأذى والاعتداء فكان من حق الشارع أن يحافظ على العقل ، فإن ذلك يكون وقاية من الشرور والآثام والشرائع تعمل على الوقاية ، كما تعمل على العلاج ، ومن أجل ذلك عاقبت الشريعة من يشرب الخمر ، ومن يتناول أي مخدر من المخدرات بالقياس على الخمر".[3]

وذلك بهدف الحفاظ على العقل الإنساني ، بحيث لا يصاب بأي أذى يكون من خلاله مصدر ضرر للمجتمع بصفة عامة ، وللفرد بصفة خاصة ، لأن حكمة الشارع الإسلامي من هذه الزواجر والأحكام الرادعة هي الحفاظ على العقل البشري والعمل على تنميته .

فالعقل هبة الله تعالى اختص بها الإنسان دون غيره من المخلوقات لكي يقوم بكافة العمليات العقلية من تفكير وتذكر وانتباه وملاحظة وإدراك وتدبر وفهم وغيرها من

(١) **المرجع السابق** : ص ص ٥٧ ، ٥٨ .
(٢) محمد أبو زهرة : أصول الفقه ، **مرجع سابق** ، ص ٣٣١ .
(٣) **المرجع السابق** : ص ٣٣١ .

العمليات العقلية الأخرى ، فبدون العقل يكون الإنسان شأنه شأن سائر الدواب ، لذلك فقد وصف المولى عزوجل من أوتي عقلا ولم يستخدمه في إدراك حقيقة الأشياء بأن مصيره إلى الضلال ويكون مثل الأنعام فقال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ الأعراف: ١٧٩

يقول الإمام في معنى هذه الآية : " إن فرق ما بين الحيوان والإنسان هو العقل والتدبير وترتيب النتائج على المقدمات ، والنظر إلى المستقبل على ضوء الماضي والحاضر ، فإذا فقد ذلك صار كالأنعام في أنفسها ".(١)

ثانياً : الحواس :

أنعم الله على الإنسان بمجموعة من النعم فكان من أبرزها أن أوتي عقلا يمكنه من الإدراك والعلم والمعرفة بالأسماء والأجناس فقال تعالى :

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾ الرعد : ١٩ "

وكذلك منح الله الإنسان مجموعة من الحواس هي الطريق إلى تلك المعرفة .

وعن حكمة الله تعالى في منح الإنسان وتزويده بهذه الأدوات يقول الإمام : " إن الله تعالى أعطى الإنسان أدوات الفهم التي تميزه عن الحيوان ، وتجعله كونا مستقلا قائما بذاته ، وما ذلك إلا ليحتل المكانة التي هيأها الله تعالى له في هذا العالم بين العالمين ".(٢)

(١) محمد أبو زهرة : زهرة التفاسير، جـ ٦ ، **مرجع سابق** ، ص ٣٠١٢ .
(٢) **المرجع السابق** : ص ٣٠٩٤ .

فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وأودع فيه استعدادا للعلم والمعرفة ، وفي نفس الوقت منحه أدوات ووسائل هي السبيل والطريق إلى تلك المعرفة ، " الله تعالى خلق الخلق وأودع كل نفس طريق العلم ، فأعطاه أدوات المعرفة كلها ، وجعل السمع يستمعون به ، والأبصار يبصرون بها ، والقلوب يدركون بها ".(١)

فكل إنسان قد منحه الله سبحانه وتعالى هذه الأدوات، وعليه حسن استخدامها فيما خلقت له، حتى يتجه الإنسان إلى إدراك حقيقة الأشياء ، وما يجري حوله في الكون الخارجي ،ومن هذه الحواس :

السمع : هو منفذ الإنسان إلى إدراك الحقيقة ، وهو أبرز الأجهزة التي زود الله بها الإنسان ولأهمية السمع ومكانته ودوره في حياة الإنسان فقد ورد ذكره في آيات القرآن مقدما على كافة الحواس فقال تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

المؤمنون : ٧٨ "

يقول الإمام في تفسير هذه الآية : " بين الله سبحانه وتعالى أنه منحهم أسباب الإدراك ولم يدركوا ، ولم يشكروا الله تعالى على ما أنعم فهو سبحانه وتعالى أنشأ لكم السمع لتسمعوا الخير وتدركوه ، ولتسمعوا آيات الله تعالى في الرعد فترهبوه ، ولتسمعوا النذر فتتقوا ، ولتسمعوا المبشرات فترجوه ".(٢)

فالسمع من أبرز الحواس التي عن طريقها يحصل الفرد على كثير من المعارف والمعلومات ، نظرا لأن العلم المراد إيصاله عن طريق السمع يكون في قدرة الجميع تلقيه والاستفادة منه سواء كان المتلقي متعلماً أم أمياً لا يجيد القراءة والكتابة ، نظراً لأنه يعتمد

(١) محمد أبو زهرة : زهرة التفاسير ، جـ ١ ، **مرجع سابق** ، ص ١١٦ .
(٢) **المرجع السابق** : جـ ١٠ ، ص ٥١٠٣ .

على مجرد الاستماع فقط ، ولكن هذا الاستماع يحتاج إلى تدبر وتفكر فيما يرد إليه حتى يدرك معناه والمقصود منه ، وقد أكد ذلك الإمام بقوله : " إن الاستماع هو تدبر المعاني والاستبصار بها ، وإدراك مراميها ومغازيها ، فليس المراد مجرد السماع ، بل السمع في تدبر وتفهم وتذكر واعتبار ".(١)

وبذلك يدرك الشخص ويعرف حقيقة ما يستمع إليه ، فلا يكون مجرد متلقي فقط بل لابد من تدبر وفهم معاني ما يسمعه ، ويدرك حقيقة ما يهدف إليه ، وبناءً على ذلك تكون معرفة الشخص عن اقتناع وعن مسئولية ، مما يترتب عليه حرص ذلك الإنسان على ترجمة ذلك إلى سلوك فعلي وواقعي .

ويقرر الإمام أن قيمة حاسة السمع قائمة بالنسبة للإنسان مادامت قد وصلت به إلى حد الفهم والإدراك، ففي قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

الأنعام: ٣٦

يقول في تفسيرها: " الاستجابة هنا هي الإجابة بعد التفكير والإمعان وتقدير الأمر، فهي إجابة محكمة دقيقة ، فهي إجابة بعد استقراء الدليل على وجوبها، وقد حصر سبحانه وتعالى الاستجابة بأنها لا تكون إلا للذين يسمعون ولا يعرضون، وينفذون إلى لباب ما يستمعون إليه ، ولا ينأون عنه،لأن السمع لا قيمة له إذا لم يصل بصاحبه إلى الفهم والهداية ".(٢)

واستجابة الإنسان وفهمه وتدبره لما يستمع إليه يتوقف على أمر ضروري ، وتوجيه

(١) **المرجع السابق** : جـ ٦ ، ص ٣٠٥٢ .
(٢) **المرجع السابق** : جـ ٥ ، ص ص ٢٤٨٨ ، ٢٤٨٩ .

هام، حتى يفهم الإنسان ويدرك مدلول ما يستمع إليه ، وهذا الأمر الذي ينبغي توافره عند الاستماع هو الإنصات، الذي أكد عليه الإمام بقوله : " الإنصات معناه السكوت للاستماع والمراعاة والإصغاء ، أي هيئوا أنفسكم للاستماع وأعدوها وراعوا ما تسمعون ، وكأن الإصغاء تقدمه للاستماع ، بأن يفرغ النفس له ، ويقدم عليه ".(١)

فالإنصات والسكوت في وقت الاستماع أمر هام وضروري يساعد المستمع على قوة التركيز مما يسهم في فهم وإدراك حقيقة ما يلقي على سمعه ، كما يسهم في تهيئة الجو المناسب للمتحدث في إيصال ما يدعو إليه ، وما يهدف إلى تبليغه من خلال حديثه .

لا تقتصر حواس الإنسان على السمع فقط ، بل إن هناك حاسة أخرى اقترن ذكرها مع السمع بشكل مستمر وهى (البصر) ، مما يدل على مكانة وأهمية هذه الحاسة بالنسبة للإنسان في رؤية وتدبر ما يدور حوله في ذلك الكون الذي سخر من أجله ، فمنحه الله قدرة على رؤية وإبصار الأشياء من حوله من خلال ما وهبه الله تعالى من عينين فقال تعالى:﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ ﴾ البلد : الآية ٨ .

وعن معنى الإبصار يقول الإمام : " الإبصار جمع بصر ، لتبصروا الكون وما فيه فتبصروا الشمس والقمر، والنجوم في أبراجها والماء ينزل فينبت الزرع ، وتكون الأرض ذات منظر بهيج، وجمع الأبصار في قوله

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

المؤمنون : الآية ٧٨

ولم يأت بها مفردة كالسمع لتعدد المبصرات وتغايرها وتكاثرها ، وفي كل مبصر منها آية تدل على وحدانية الله وقدرته ، وكل مبصر له حيز وشكل وصور مختلفة ولبيان أن

(١) **المرجع السابق** : جـ ٦ ، ص ٣٠٥٢ .

في المبصرات مناظر مختلفة تسوغ تعدد البصر لأجلها ".(١)

وعن المقصود من البصائر في قوله تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

الأعراف : من الآية : ٢٠٣ "

يقول الإمام : " البصائر جمع بصيرة ، وأصلها من البصر وهي الرؤية والنظر ثم الإدراك والفهم ، ثم أطلقت على ما يؤدي إلى الإدراك أو هو آلته ، فإطلاق البصائر على الآيات من قبيل المجاز لأنها سبب إدراك الحقائق الربانية ، والسبيل إلى معرفة الله تعالى وقدرته ورسالاته الإلهية ، فهي من قبيل إطلاق اسم السبب ، وإرادة المسبب ، وهو إبصار الحقائق الربانية ومعرفتها ".(٢)

فقد منح الله الإنسان قدرة تمكنه من رؤية الأشياء وإدراك حقيقتها ، حتى يتمكن الفرد من خلالها من إدراك حقيقة الكون والنظر والتدبر في خلق الله تعالى ، وما سخره للإنسان من نعم يتبين من خلالها مدى عظمة الخالق وقدرته ، ومن حرم هذه النعمة فإن هناك أشياء كثيرة لا يتمكن من معرفتها وإدراكها ، فينبغي على الفرد حسن استخدام هذه الحاسة حتى تحقق الأهداف المرجوة منها ، بما يسهم في تنمية معارف الشخص وخبراته .

وبجانب حاستي السمع والبصر توجد حواس أخرى لها دورها في تنمية معارف الفرد ومعلوماته، من هذه الحواس التي وهبها الله للإنسان وهي من وسائل الإدراك والمعرفة (حاسة اللمس) حيث يدرك الإنسان من خلال هذه الحاسة بعض ما يجهله، ومن ذلك قوله تعالى:

---

(١) **المرجع السابق** : جـ ١٠ ، ص ٥١٠٣ .
(٢) **المرجع السابق** : جـ ٦ ، ص ٣٠٥٠ .

obeikandl.com

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾الأنعام:٧

وفي هذا بيان لمدى جحود وعناد هؤلاء الكافرين حتى وإن نزل عليهم ما يدل على صدق ما جاء به النبي، وكانت معرفتهم لهذا المكتوب من خلال اللمس بالأيدي ، ويقول الإمام في تفسير هذه الآية : " الكلام القرآني في مضمونه هنا يحكم بأن الهداية السامية لا تفتح لها قلوبهم المعرضة المتحيرة المركسة في الضلالة ، وقوى سبحانه وتعالى امتناع هدايتهم إذا جاءتهم آية بأن لو نزل عليهم مكتوب من السماء محفوظ في قرطاس ، متضمن معنى رسالة الله ، ولمسوه بأيديهم للدلالة على العلم الحسي الذي لا ريب فيه، ولا شك لا يؤمنون، فتأكدت لديهم رسالة الله تعالى بأمور ثلاثة ، بهذا المكتوب الذي وضع في غلافه وبلمسه بالحس ، وبكون اللمس بكل الأيدي والجوارح "(١) ، فاللمس أداة من أدوات الحصول على المعرفة والعلم الحسي ، يتبين للإنسان من خلالها حقيقة بعض الأشياء من خلال المعاينة الحسية التي يكون لها أثر في النفس ، ولابد من تكامل هذه الحاسة مع بقية الحواس الأخرى .

ولأن هذه الأدوات نعم قد أنعم الله بها على الإنسان للحصول على المعرفة إن أحسن استخدامها ، فقد ألقى المولى عز وجل المسئولية عن هذه الحواس وبقية أدوات المعرفة على الإنسان ، فيسأل عنها يوم القيامة إن كان قد انتفع بها واستخدمها فيما خلقت له ، حيث قال تعالى:

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ الإسراء:٣٦

(١) **المرجع السابق** : جـ ٥ ، ص ٢٤٤١ .

" يقول الإمام في تفسير هذه الآية : " بين الله تعالى طريق العلم الهادي المرشد وهي هبات الله تعالى التي وهبها للإنسان ، وإنها مسئوله ، فيسأل السمع لماذا لم يسمع الحق وينصت إليه ، ويسأل البصر لماذا لم ير الآيات وينظرها نظرة إدراك وتعرف ، والعقل لماذا لم يفكر فيما تنقله إليه الحواس ولماذا لم يأخذ بأسباب العلم ،ويتبع الأوهام فيكون الخبال وراءه الضلال".(١)

فمسئولية هذه الأدوات التي منحها الله للإنسان من أدوات المعرفة منوطة بالإنسان ، حيث يسأله المولى عز وجل عنها يوم القيامة عن سبب تعطيلها وعدم استخدامها في إدراك حقيقة ما حوله، وفي النظر إلى الكون بكل ما يشتمل عليه حتى يصل إلى ما ينفعه من العلم والمعرفة ، وما ينتفع به الناس جميعا .

لقد أنعم الله تعالى على الإنسان بهذه الأدوات دون سائر المخلوقات حتى يتمكن من الفهم والإدراك والمعرفة ، وبذلك يحتل المكانة التي ميزته على غيره من المخلوقات، فإذا توقف عن استخدام هذه النعم وعطلها عن العمل استحق ذلك الوصف الذي وصفه به المولى عز وجل حيث قال تعالى:

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ الأنفال :٢٢

يقول الإمام عن معنى هذه الآية : " في الكلام استعارة تمثيلية حيث شبه فيها من لا يسمع الحق ولا يدركه ، ولا يبصر الآيات ولا يتأملها ، ومن لا يفقه الحق ولا يدرك بالدابة التي لا تسمع مواطئ الأقدام فتطؤها، ومن لا ينطق مستغيثا فتدقه الأمور دقا، ومن لا يعقل ما يضره فيكون فريسة الكل، وجامع التشبيه هو عدم الفائدة من هذه الحواس، فهي إذا كانت ذات فائدة في ذاتها فإنه لا يستفيد منها، ومن لا يستفيد من شيء فوجوده وعدمه

(١) **المرجع السابق** : جـ ٨ ، ص ٤٣٨٣ .

سواء ".(١)

وقد شبههم المولى عز وجل في موضع آخر بالأنعام ، حيث قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ الأعراف : ١٧٩

يقول الإمام في تفسير هذه الآية: " الإشارة إلى الذين لهم قلوب لم يدركوا بها إدراكا نافذا إلى ما وراء وأوتوا أبصارا لم يعرفوا عظمة الكون وخالقه منها ، وأوتوا سمعا لم يستمعوا به إلى المواعظ النيرة ، والزواجر الزاجرة ، هؤلاء ما دام لم ينتفعوا بهذه المواهب يصيرون كالأنعام ،لأن ما أعطاهم سبحانه جعلوه هملا فكأنهم لم يعطوه كالأنعام ، ويقول سبحانه " بَلْ هُمْ أَضَلُّ " لأن من أعطى شيئا ولم ينتفع به أضل ممن لم يعط شيئا ".(٢)

فقد حكم المولى عز وجل على من وهبهم هذه النعم والهبات ولم يستعملوها ، ولم يقوموا بواجبها، بأنهم أضل من الأنعام لأنهم عطلوا تلك الأدوات والوسائل التي وهبها الله تعالى لهم .

من خلال هذا يتبين لنا أن الحواس هي نوافذ المعرفة للإنسان والتي ترد إليها من خلال العالم الخارجي ، فهي طريق المعرفة الحسية وينبغي أن تتكامل هذه الحواس مع بعضها البعض في إدراك ومعرفة حقيقة الأشياء وفي تحصيل العلم والمعرفة ، فهي هبات الله تعالى للإنسان عليه حسن استخدامها فهو مسئول عنها .

(١) **المرجع السابق** : جـ ٦ ، ص ٣٠٩٥ .
(٢) **المرجع السابق** : ص ص ٣٠١٢ ، ٣٠١٣ .

مصادر المعرفة :

تنوعت وتعددت مصادر المعرفة في التصور الإسلامي ، وإن كان أصل المعارف كلها يعود إلى الله تعالى ، فالإنسان مخلوق لله تعالى ، والله سبحانه وتعالى أعلم بطبيعته وما يحتاج إليه من معلومات ومعارف ، فجاءت مصادر المعرفة كثيرة ومتعددة يحصل من خلالها الإنسان على كل ما يحتاج إليه في دينه ودنياه ، ويمكن حصر هذه المصادر عند الإمام فيما يلي :

أولاً : (الوحي) :

الوحي الذي نزل على الرسول ﷺ هو المصدر الأساسي للمعرفة ، الذي تستمد منه كل فروع العلم والمعرفة ، فهو يشمل الرسالات السماوية التي يكلف بها كل نبي من أنبياء الله من أجل العمل بها وتبليغها إلى قومه الذين أرسل إليهم . فمصدر هذه المعرفة إلهي من المولى عز وجل .

والوحي كما عرفه الإمام بقوله : " في الأصل الإعلام الخفي ، والإشارة والإيماء والإلهام ، وغير ذلك من المعاني التي تدل على أنه إعلام خاص ، لا يكون بطريق الإعلام الظاهر وقد قال تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ الشورى : آية ٥١

فالوحي على هذا نوع من خطاب الله تعالى ويقابله الكلام من وراء حجاب وإرسال ملك من الملائكة بالخطاب ".(١)

فالوحي إعلام خفي لأنبياء الله ، يتجه إلى تبليغهم بما أرسله الله به إلى هؤلاء

(١) محمد أبو زهرة : زهرة التفاسير ، جـ ٤ ، **مرجع سابق** ، ص ١٩٦٣ .

الأنبياء وهم يقومون بدورهم بتبليغه إلى الناس ، فالوحي هو الوسيط بين المولى عز وجل وبين أنبيائه الكرام، وهو مصدر المعرفة بالنسبة لهم .

والوحي كما قرر الإمام له أنواع متعددة وكثيرة ، وله أشكال وصور مختلفة فيما يتعلق بخطاب الله تعالى لأنبيائه ، ففي تفسير قوله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ ﴾ الشورى : آية ٥٢

يقول الإمام : " لم يبين نوع الوحي ، إذ هو على ضروب مختلفة ومتعددة بالنسبة لخطاب الله تعالى لأنبيائه عامه ، وبالنسبة لمحمد خاتم النبيين خاصة ، وذلك إما بإرسال رسول يشاهد، يُرى ويُسمع كلامه كتبليغ جبريل للنبي ﷺ (يراها النبي ﷺ وحده) وإما بإلقاء في الروع كما قال ﷺ (إن روح القدس نفث في روعي) ، وإما بمخاطبة الله تعالى وسماع كلامه سبحانه من غير حس ، كما كان في المعراج وفرض الصلوات ، وبكل تلك الطرق والأنواع كان وحي الله تعالى لنبيه ﷺ ".(١)

فأنواع الوحي وطرق اتصاله بالنبي ﷺ بصفة خاصة كثيرة ومتعددة، إما عن طريق رسول يرسله الله تعالى بحيث يراه النبي ﷺ ويسمع كلامه وهو (جبريل) عليه السلام ، وإما عن طريق الإيحاء، وإما عن طريق كلام الله تعالى لنبيه من وراء حجاب ، كما خاطب المولى عز وجل النبي ﷺ من وراء حجاب .

وقد شرف المولى عز وجل الوحي بأن أضافه إليه فهو مصدره ففي : " إضافة الإيحاء إلى الله تعالى في قوله:

(١)محمد أبو زهرة : المعجزة الكبرى القرآن ، **مرجع سابق** ، ص ص ٩٦ ، ٩٧ .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ ﴾الشورى: آية ٥٢

بيان عظمة الوحي ، وكون الإيحاء إلى النبي ﷺ مخاطبا له جل جلاله إعلاء لشأنه،وبذلك تتآخى في رفع شأن الرسالة والنبي ﷺ ،وقوله تعالى﴿ ... رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا ...﴾ الروح هنا قال أكثر المفسرين للقرآن إنه جبريل ، ونرى أنها تشمل جبريل عليه السلام فقد سماه الله تعالى روح القدس ويكون معنى الإيحاء الإرسال ، ويشمل القرآن ويشمل الشريعة نفسها ، وتسميتها بالروح لما فيها من معنى البقاء والحياة إلى يوم القيامة".(١)

فمصدر الوحي هو المولى عز وجل ، فكان شرف لهذا الوحي بإضافته إلى مصدره وأصله وهو الله سبحانه وتعالى ، وهذا الوحى هو مصدر إحياء الخلق وهدايتهم إلى الحق ، وإرشادهم إلى الطريق المستقيم .

والحكمة من إرسال الوحي كما ذكر الإمام : " تثبيت فؤاد الرسول ﷺ بموالاة الوحي بالقرآن ، فإن موالاته فيها أنس للنبي ﷺ ، وتثبيت لعزيمته ، وتأييد مستمر له فيقوم بحق الدعوة بالجهاد في سبيلها ، وإذا كان المرء يستأنس بوليه إذا والى الاتصال به ، فكيف لا يستأنس رسول الله تعالى بلقاء الروح الأمين الذي يجيئه بكلام رب العالمين في موالاة مستمرة ".(٢)

وقد قسم الإمام وحي الله تعالى لنبيه إلى قسمان هما : " قسم يوحي به على أنه كلام الله تعالت كلماته، ولهذا يكون المعنى والتعبير لله تعالى جلت قدرته، وذلك كما في

(١) **المرجع السابق** : ص ٩٧ .
(٢) **المرجع السابق** : ص ١٨ .

obeikandl.com

القرآن الكريم، الذي نزل به الروح الأمين ، القسم الثاني : الأمور الشرعية التي كان يوحي الله بها إلى نبيه ﷺ ليبينها للناس، فالمعنى فيها بوحي من الله تعالى والعبارة فيها للنبي ﷺ".(١)

أما عن القسم الأول وهو ما يكون اللفظ والمعنى فيه من عند الله تعالى وهو القرآن الكريم فهو المصدر الأول والأساسي لهذه الشريعة كما ذكر الإمام حيث قال : " القرآن الكريم هو مصدر المصادر لهذه الشريعة وينبوع ينابيعها، والمأخذ الذي اشتقت منه أصولها وفروعها، وأخذت منه الأدلة قوة استدلالها ، فهو بهذا الاعتبار كلي الشريعة وجامع أحكامها ".(٢)

فما من خبر إلا له أصل من القرآن الكريم ، ذلك الكتاب الذي تحدى به المولى عز وجل الإنس والجن على الإتيان بمثله فعجزوا ، حيث قال:

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ الإسراء:آية ٨٨.

والقرآن الكريم في ألفاظه وأسلوبه الفكري والبياني لا يخص جماعة دون أخرى ولا يناسب طائفة دون غيرها : " فالقارئ لكتاب الله سبحانه وتعالى ، وما فيه من أدلة يرى أنه واضح للعامي يدرك منه ما يناسب خياله ، ويسمو إليه إدراكه ، وما يدركه منه صدق لا شبهة فيه ، ويرى فيه العالم الباحث المحقق حقائق صادقة ما وصل إليها البحث الحديث إلا بعد تجارب ومجهودات عقلية عنيفة ، وكلما ازداد المتبصر في الآيات التي تتعلق بالكون في القرآن الكريم تأملا ازداد استبصارا ، ورأى علما أسمى مما يدركه الإنسان بتجاربه ،

(١) محمد أبو زهرة : محاضرات في النصرانية ، **مرجع سابق** ، ص ١١٥ .
(٢) _____ : أبوحنيفة حياته وعصره - آراؤه وفقهه ، **مرجع سابق** ، ص ٢٩٧ .

وأعلى مما يهتدي إليه بعقله المجرد ".(١)

فهو كتاب الهداية والإرشاد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فهو من عند الله العليم فقال تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ﴾ البقرة : آية ٢

فهو منهج الله في الأرض من تمسك به نجا وسلك طريق الحق والهداية ومن خالفه ضل واتبع الشيطان والهوى ، والله سبحانه وتعالى هو المتكفل بحفظه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فهو القائل

﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩ ﴾ الحجر: آية٩ .

أما عن القسم الثاني وهو ما يكون المعنى من عند الله تعالى بوحي منه ولكن اللفظ من عنده ﷺ فهي السنة النبوية وهي كل ما صدر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير فهي : " مكملة للكتاب في بيان الأحكام الشرعية ومعاونة له ، ولذلك لم يفصلها الشافعي عنه في البيان ، واعتبرها هي والكتاب نوعا من الاستدلال يعد أصلا واحدا ، وهو النص وهما متعاونان في بيان الشريعة تعاونا كاملا ، والسنة مع ذلك أصل في الاستنباط قائم بذاته".(٢)

ولا تقتصر السنة النبوية على تفصيل المجمل أو تبيين المبهم أو تخصيص العام لما اشتمل عليه القرآن من أحكام شرعية بل إنها : " تزيد على فرائض ثبتت أصولها في القرآن بالنص بأن تأتي بأحكام زائدة مكملة لهذه الأصول ، كما أنها تأتي بحكم ليس في القرآن نص عليه وليس هو زيادة على نص قرآني ".(٣)

(١)محمد أبوزهرة: تاريخ الجدل ، **مرجع سابق** ، ص ص ٥١ ، ٥٢ .
(٢)_____: أصول الفقه ، **مرجع سابق** ، ص ١٠١ .
(٣) **المرجع السابق** : ص ١٠٧ .

من خلال هذا يتضح لنا أن الوحي هو مصدر أساسي من مصادر المعرفة ، وهو على ضروب وأشكال مختلفة ، جميعها مصدرها المولى عز وجل ، وقد كان أبرزها وأكثرها شمولا ما كان بإرسال رسول وهو وحي الله تعالى لأنبيائه ، وقد قسم الإمام هذا الوحي إلى قسمين قسم يكون المعنى فيه واللفظ من الله تعالى وهو القرآن الكريم الذي هو مصدر كل المعارف والمرجع في كل ما يحتاج إليه المرء في الدنيا والآخرة ، أما القسم الثاني يكون المعنى فيه من عند الله أما اللفظ فهو من عند الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى ، وبذلك يكون الوحي أبرز وأهم مصادر المعرفة وأكثرها نفعا وفائدة للبشرية فهو مصدر المصادر لهذه الشريعة وينبوع ينابيعها .

ثانياً : الإلهام :

الإلهام طريق من طرق المعرفة ومصدر من مصادرها ، فهو شيء غيبي يقع في قلب المسلم ، يوجهه إلى الحقيقة ، ويدفعه إلى الصواب وله حكم الحقيقة والإلهام في المعجم الوسيط ، : " ألهمه الله خيرا ألقاه في روعه ولقنه إياه ، واستلهم الله خيرا سأله أن يلهمه إياه ، والإلهام إيقاع شيء في القلب يطمئن له الصدر، يخص الله به بعض أصفيائه ، وما يلقي في القلب من معان وأفكار".(١)

فالإلهام توجيه قلبي وداخلي للإنسان نحو حقيقة معينة ، وقد سمي الإمام هذا العلم الذي يرد للإنسان عن طريق الإلهام (بالعلم اللدني) ، وقد عرف هذا العلم في تفسير قوله تعالى:﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ الكهف : آية ٦٥

(١) إبراهيم أنيس وآخرون : **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية ، ط٢ ، جـ٢، القاهرة ، مطابع دار المعارف، ١٩٧٢م، ص ٨٤٢ .

" العلم الذي من لدن الله تعالى هو العلم بعواقب الأمور بالإدراك الباطني "(١) فهذا العلم يكون عن طريق الإلهام والإيحاء الداخلي للإنسان .

قسم الإمام الإلهام إلى قسمين هما (الإلهام الصادق) ثم (الإلهام المجرد) ، أما عن القسم الأول فيقول الإمام : " إن الدارس للنفس الإنسانية والمتتبع لأخبار العلماء الذين ضربوا في العلوم بسهام وافرة يجد أن للإلهام وصفاء النفس دخلا فيما وصلوا إليه من علوم حتى إن العالم أحيانا ليجدُّ ويكدح فلا يصل إلى النتيجة الصادقة التي يتغياها من بحثه وفحصه ، حتى إذا سكن وقد يكون سكون اليأس وجد النتيجة قريبة منه دانية ، وما من عالم باحث إلا شعر بأن وراء جهوده إلهام من الله تعالى نسميه توفيقا منه وهو ولي التوفيق ، ونسميه إلهاما بالصواب وهو سبحانه الملهم بالصواب ".(٢)

فهذا النوع من الإلهام يقع مع العلماء والباحثين الذين أبوا إلا البحث والدراسة بصفة مستمرة ، فقد يقفون عند نقطة معينة في بحث أو دراسة بعد جهد شاق ، وبعد نفاذ كل السبل ، يكون الإلهام من الله والهداية إلى الحقيقة والتوصل إلى النتيجة ، ويتوقف ذلك على الصفاء الروحي والإخلاص والتعمق في الدراسة ، كما ذكر الإمام : " إن الإشراق النفسي سبيل للحكمة ، وطريق المعرفة الصادقة ، ولكن لابد من الرياضة الروحية والدراسات العميقة، وبعد هذه الدراسات يكون الكشف العقلي ، وتكون النتائج الموفقة ويكون الإلهام الصادق ".(٣)

هذا عن الإلهام الصادق الذي يبني على الدراسة والفحص والتعمق ، ثم توفيق الله تعالى وهدايته ، أما عن القسم الثاني من أقسام الإلهام وهو (الإلهام المجرد) فيقول الإمام :

---

(١) محمد أبو زهرة : زهرة التفاسير ، جـ٩ ، **مرجع سابق** ، ص ٤٥٥٩ .
(٢) محمد أبوزهرة : الإمام الصادق حياته وعصره - آراؤه وفقهه ، **مرجع سابق** ، ص ٧٠ .
(٣) **المرجع السابق** : ص ٦٩ .

" الإلهام المجرد من غير دراسة وتعمق في الدراسة والبحث والفحص ، فإنه يكون من قبيل الخوارق لا من قبيل الأمور التي اعتادها المختصون بالفحص والبحث والدراسة والتعمق فيها ، ولا شك أن من الأشياء التي نشاهدها ما يعد من خوارق هذا الوجود ، ولا يجري على السنن الكونية التي سنها الله سبحانه وتعالى لكونه وما يجري فيه وإن هذه الخوارق بحدوثها وقتا بعد آخر تدل على الإرادة المختارة لله تعالى ، وإن السنن الكونية التي سنها هي مقتضى حكمته وهو الحكيم العليم ، وخرقها من آن لآخر هو مقتضى إرادته المطلقة الأزلية "(١) ، فهو الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء ويفعل ما يريد ، وهو الله سبحانه وتعالى عالم الغيب والشهادة وكل شيء عنده بمقدار.

من خلال هذا يتبين لنا أن الإلهام ضرب من ضروب العلم ، ومصدر من مصادر المعرفة بالنسبة للإنسان كما قرر ذلك الإمام بقوله : " لا ننفي الإشراق الروحي عن أولئك الذين زكت نفوسهم وراضوها بالإخلاص والاتجاه إلى الله تعالى ، وإن الأئمة أصحاب المذاهب لا يخلون من هذا الإشراق الروحي،لهذه الرياضة الروحية التي أخذوا أنفسهم بها وقد تتفاوت مراتبهم في هذا ".(٢)

ثالثا : الكون :

الكون وما فيه مصدر من مصادر العلم والمعرفة بالنسبة للإنسان لذلك فإن القرآن الكريم الذي هو مصدر الشريعة قد احتوى على كثير من الآيات التي تتحدث عن الكون وما اشتمل عليه من أنس وجن وحيوان وجماد ونجوم وأفلاك وشمس وقمر ، وكثير من الأسرار التي توجد في الكون ، وقد قرر ذلك الإمام بقوله : " إن القرآن الكريم فيه إشارات بينات إلى علم الكون ، ونعتقد أن الذين درسوا علوم الكون في السماوات والأرض وما بينهما لو تتبعوا

(١) **المرجع السابق** : ص ٩٦ .
(٢) **المرجع السابق** : ص ٧٤ .

آيات القرآن الكريم التي تعرضت لذكر الكون لوجدوا حقائق كثيرة مما وصل إليه العلم الحديث قد تعرض لها القرآن بالإشارة الواضحة التي تجمل ولا تفصل ، وهما في كلتا الحالتين صادقة كل الصدق بينه لمن يطلب الحقائق الصادقة ".(١)

فالكون من المصادر التي تثري معارف الإنسان ومعلوماته فهو غني بكثير من الحقائق والمعلومات التي أمر الله بضرورة النظر فيها ، والتدبر في حقيقتها ،ومحاولة كشف أسرارها فقال تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾

الأعراف : آية ١٨٥.

يقول الإمام في تفسير هذه الآية : " الاستفهام للتعجب من أمر المشركين الذين هبط حالهم إلى عبادة حجر لا ينفع ولا يضر ، ولا ينظرون إلى الكون العظيم وخالقه ولا ينظرون إلى السماء وأبراجها والشمس وضوئها ، والقمر ونوره ، وتعاقب الليل والنهار ، ولا إلى الأرض وسهولها وأوتادها ، والأشياء التى خلقها الله تعالى من حيوان وجماد وفلزات في باطن الأرض ، لا ينظرون إلى ذلك ويسجدون للصنم ، ويجعلونه إلهاً كخالق هذا الكون وخالق الوجود ،إن هذا قصور في الفكر والعقل ، وضلال في القول والعمل ".(٢)

فكل ما في الكون سخره الله سبحانه وتعالى للإنسان ، ينبغي على الإنسان النظر إليها ، والتدبر فيها ، وكشف أسرارها ، حتى يتيسر له فهمها ، وحسن استخدامها فقال تعالى:

(١) محمد أبو زهرة : المعجزة الكبرى القرآن ، **مرجع سابق** ، ص ٣٧٢ .
(٢) _____ : زهرة التفاسير ، جـ ٦ ، **مرجع سابق** ، ص ٣٠٢٠ .

obeikandl.com

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ يونس:آية ١٠١ .

يقول الإمام في تفسير هذه الآية : " أمر الله نبيه أن ينبههم إلى خلق السماوات والأرض ، وما يدل عليه ، وأن يذكرهم بالوجود وما فيه ، وأن العالم المرئي هو السماوات والأرض وما فيهما من عجائب ونظم ونواميس يدبر أمرها ويقوم على وجودها ويسيرها بإرادته ، لا تتحرك حركة عن حركة إلا بإذنه سبحانه بديع السماوات والأرض ".(١)

وبرغم الجهد البشري الشاق في معرفة الكون واكتشاف أسراره ، إلا أن الإنسان لم يصل إلى نهاية في علم الكون فهو ملئ بالمعارف والحقائق التي تدل على قدرة الله وعظمته " إن العلماء الذين يتعمقون في دراسة الكون ، وخصوصا الذرة كلما ازدادوا تعمقا أدركوا أن لهذا العالم منشئا ومسيرا للكون وإن أسرار الكون التي يكتشفها العلم الحديث تدل على وجود العليم القدير الذي سخر لنا ما في السماوات وما في الأرض".(٢)

فإذا أدرك الإنسان حقائق هذا الكون ، وتيقن من معرفة أسراره ، وأدرك أن الله سخر له ما في الأرض جميعاً ، فإن ذلك يؤدي إلى ضرورة شكر النعمة بإخلاص العبودية لله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ الذاريات : آية ٥٦ .

العناصر المؤثرة في توجيه الإنسان إلى المعرفة:

هناك مجموعة من العوامل والعناصر التي يكون لها أكبر الأثر في توجيه الإنسان إلى تحصيل العلم والمعرفة منذ صغره ، حيث أن اجتماع هذه العناصر يؤدي إلى نزوع الإنسان إلى طريق العلم والدراسة ، وقد ذكر الإمام هذه العناصر بقوله : **أولها** : وهو العماد والدعامة

(١) **المرجع السابق** : جـ ٧ ، ص ٣٦٣٩ .
(٢) محمد أبو زهرة : الإمام الصادق حياته وعصره - آراؤه وفقهه ، **مرجع سابق** ، ص ٩٩ .

لغيره من العناصر (مواهب الشخص واستعداداته ونزوعه) .

ثانيها : من يصادفهم من الموجهين والشيوخ الذي يسنون له طريقا في سبل المعرفة ومناهجها ، ويخطون من نفسه الخطوط التي تنطبع ولا تمحى ،

ثالثها : حياته واختباراته وتجاربه ودراساته الشخصية ،

رابعها : العصر الذي أظله ، والبيئة الفكرية التي كنفته ولابسته وغذته ".(١)

هذه هي العناصر التي ذكرها وحددها الإمام ، والتي يكون لها أثرها في توجيه الإنسان إلى تحصيل العلم والمعرفة ، والتوجه نحو العلم والتعليم ، وسوف يتم توضيح كل عنصر من هذه العناصر من وجهة نظر الإمام كالآتي :

(أولاً) مواهب الشخص واستعداداته :

تتمثل هذه المواهب والاستعدادات في مجموعة الصفات التي يتصف بها المتعلم وقد قسم الإمام هذه الصفات إلى : " صفات بعضها هبات من الله تعالى العلي القدير يهبها لمن يشاء من خلقه ، وبعضها صفات تكتسب بالمران والتربية والنشأة والتوجيه والنزوع إليها ". (٢)

فهذه الصفات والمواهب سواء كانت فطرية أم مكتسبة هي : " المستودع الذي تكون به الذخيرة العلمية ، وهي القوى التي توجهه وتصرفه وتظهره ، وهي التي تنميه وتبني عليه". (٣)

فهي الأساس والدعامة في توجه الإنسان نحو العلم والمعرفة ، وقد ذكر الإمام من هذه الصفات : " الحافظة القوية الواعية وهي الأساس لكل علم ونظر ، ثم الصبر الذي هو

(١)محمد أبو زهرة : **الشافعي حياته وعصره - آراؤه وفقهه** ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٧٨م ، ص ٣٦ .
(٢) محمد أبوزهرة : **ابن حنبل حياته وعصره - آراؤه وفقهه** ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٦١م ، ص ٦٠ .
(٣)محمد أبو زهرة: **الإمام زيد حياته وعصره - آراؤه وفقهه** ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٩٥م ، ص ٧٢ .

مجموعة من السجايا الكريمة أساسها قوة الإرادة وصدق العزيمة وبعد الهمة مهما يتعب الجسم ، ثم النزاهة التي هي عدة مظاهر منها نزاهة النفس ، ونزاهة العقل والإيمان ، ونزاهة فقه وبعد عن الجدل ، ثم الإخلاص في طلب الحقيقة فلا يطلب العلم لمراء أو جدال أو لاجتياز مجالس ، أو لجاه عند ذي سلطان ، بل يتجه إلى الحقيقة اتجاها مستقيما لا عوج فيه ".(١)

كل هذه الصفات وغيرها سواء أكانت فطرية أم مكتسبة ضرورية وأساسية في توجه الإنسان نحو العلم والمعرفة ، فبدونها يكون جهد الإنسان وعمله جهد من غير فائدة في طريق العلم فهي الأساس الذي تقوم عليه بقية العناصر الأخرى .

(ثانياً) الموجهون له ومن يتصل بهم :

هناك العديد من الأشخاص الذين يكون لهم أكبر الأثر في تنشئة الفرد وتكوينه الفكري، ويأتي في مقدمة هؤلاء الأفراد المعلم حيث : " يحتل المعلم مكانة هامة عند كافة أفراد المجتمع ، على اختلاف مستوياتهم ، فهو مؤتمن على الأبناء ، فهم أهم ما يملكه المجتمع من ثروة ، وتكمن أهمية المعلم فى كونه الشخص الذى يقوم بعملية التعليم ، ويرعى هذه الثروة ، ويسهم في تنميتها لتحقيق أهداف المجتمع وطموحاته".(٢)

فالمعلم له دور ومكانة هامة في توجيه الفرد إلى طريق العلم والمعرفة ، فهو يقوم بدور الموجه والمرشد لهؤلاء المتعلمين ، وقد أكد الإمام على هذا الدور بقوله : " هم الذين يضعون يده على ينابيع العلم ، ويوردونه موارده، ويهدونه إلى مواطن الخصب والخير".(٣)

فهم بذلك يضعون المتعلم على بداية طريق العلم والمعرفة من خلال توجيهه نحو

(١)محمد أبو زهرة : ابن حنبل حياته وعصره - آراؤه وفقهه ، **مرجع سابق** ،ص ص ٩١ ، ٩٥ ، ١٠١

(٢) عبد السلام مصطفى عبد السلام:**أساسيات التدريس والتطوير المهنى للمعلم**،القاهرة،دار الفكر العربى،٢٠٠٠م، ص ٢٨٨.

(٣) محمد أبو زهرة : الإمام زيد حياته وعصره - آراؤه فقهه ، **مرجع سابق** ، ص ٧٢ .

الدراسة والبحث والإطلاع ، وتعريفه وتبصيره بطرق الهداية نحو العلم والمعرفة ، وهم بذلك يتجهون به نحو حياة العلم والتعلم بدلا من الاتجاهات الأخرى .

فضلا عن ذلك فإن الموجهين هم الذي يسهمون في تحديد الطريق الذي يسلكه المتعلم ويتجه إليه بما يتناسب مع قدراته ومواهبه ، وقد قرر ذلك الإمام بقوله : " الموجهون الذين التقى بهم ، وأثروا فيه ، ورسموا له الطريق التي اختار نهجها أو أروه المناهج المختلفة لى ضوئها شق طريقه ، وغير سبيله ، وسار فيما رآه المنهج الأمثل ، والطريق الأقوم ".(١)

من خلال هذا يتضح لنا مدى أهمية ومكانة الموجه أو المرشد أو المعلم في توجيه المتعلمين إلى طريق العلم والمعرفة من خلال الكشف عن قدرات واستعدادات وميول هؤلاء المتعلمين ، بما يحقق آمال وطموحات واتجاهات هؤلاء المتعلمين وبما يسهم في تنمية مختلف مجالات العلم والمعرفة ويحقق أكبر قدر من التطور والتقدم التكنولوجي .

(ثالثاً) حياته الشخصية ودراساته الخاصة وتجاربه :

يقول الإمام : " لحياة الشخص الخاصة ، وما يكتنفها من أحوال وشئون ، وما يتصل بها من دراسات حرة ، لا يعتمد فيها على شخص ، وما يعركه به التجارب آثار في علمه وتوجيهه وإرهاف فكره أو إضعافه ".(٢)

فالاتجاه إلى العلم والمعرفة لا يقتصر على مجموعة المواهب التي تتوافر لدى الشخص ، مع توافر مجموعة من الموجهين والشيوخ ، بل إن هناك عناصر أخرى تتمثل في حياة المعلم الشخصية وظروف هذه الحياة ، بحيث توفر له سبل السير في طريق العلم والمعرفة أم أنها تتجه به إلى طرق أخرى في الحياة حيث أنها تستلزم ذلك ، ويؤكد ذلك الإمام بقوله: " قد تتحد المواهب والشيوخ لشخصين ولكن أحدهما يسير إلى النجاح والآخر

(١) **المرجع السابق** : ص ٦٣ .
(٢) محمد أبو زهرة : أبو حنيفة حياته وعصره - آراؤه وفقهه ، **مرجع سابق** ، ص ٨٥ .

لا ينجح أو يسلك سبيل غير الذي يؤدي إلى النجاح لأن حياته الخاصة رسمت له طريقا آخر، ولم يكن ثمة مواءمة بين ما يوجهه إليه شيوخه ومواهبه، وما توجهه إليه حياته الخاصة وصفاته ".(١)

فحياة الإنسان الشخصية وما تفرضه هذه الحياة من ظروف يكون لها أثر بالغ في توجيه الإنسان إلى طريق العلم والمعرفة أو الاتجاه إلى طريق آخر في الحياة المادية وما يتصل بها،بما يتفق مع ظروف هذه الحياة: " فمن الناس من يتهيأ لهم تربية علمية سامية ولكن ما إن شب عن الطوق حتى يجانب العلم والعلماء، ويسير في طريق يجف فيه ما نبت في عقله ويطفئ الضوء الذي انبثق في قلبه ،ومنهم من يسير في طريق الحياة تنمو به الأغراس التي غرست في نفسه".(٢)

ولا يقتصر علم الإنسان ومعرفته على مجرد ما يصل إليه من شيوخه ومعلميه، بل إن دراسات المتعلم الشخصية التي يقوم بها بنفسه لها أثر كبير في تحصيل العلم والمعرفة وقد أكد ذلك الإمام بقوله:"لا يستفيد العالم علمه من مواهبه وشيوخه فقط، بل إن دراسته الخاصة، ومعالجته لأبواب العلم، ورحلاته واختباراته لها شأن عظيم في ثقافته ولها الأثر الأكبر في إنتاجه، وما يختص به من ثمرات عقله ".(٣)

لذلك ينبغي ضرورة تشجيع الفرد على كثرة البحث والإطلاع والدراسة وعدم الاقتصار على ما يتلقونه من معلميهم وموجهيهم، كذلك فإن كثرة التنقل والرحلات في طلب المعرفة، وتبادل الخبرات العلمية من خلال السفر والمسابقات والمناظرات والندوات العلمية لها أثر كبير في تنمية معارف الشخص ومعلوماته، وقد قرر ذلك الإمام بقوله : " ولا

(١)محمد أبو زهرة : الإمام زيد حياته وعصره - آراؤه وفقهه ، **مرجع سابق** ، ص ٦٤ .
(٢) **المرجع السابق** : ص ٧٢ .
(٣) محمد أبو زهرة : الشافعي حياته وعصره - آراؤه وفقهه ، **مرجع سابق** ، ص ٤٦ .

شك أن الأسفار فوق ما تعطيه للفقيه من مادة وخبرة هي بطبيعتها تفتق الذهن وتنمي المدارك ، وتفتح له مسالك من الفروض العقلية،والمسائل الواقعية،وهي لازمة للمفكر الذي يريد أن يضع قضايا كلية للحوادث الجزئية " .(١)

من خلال هذا يتضح لنا أن حياة الإنسان الشخصية ، وما يحيط بها من أحداث وظروف تفرض على الإنسان وجهة معينة ، فقد تتجه به إلى البحث والدراسة والاطلاع وقد تفرض عليه تلك الظروف وجهة أخرى في الحياة ، لذلك ينبغي مراعاة حياة الإنسان الشخصية وما يتصل بها من أحوال وظروف ، كذلك ينبغي العمل على تنمية اتجاهات الشخص نحو البحث والدراسة وكثرة الإطلاع من خلال المناظرات والمسابقات والبحوث وتشجيع الرحلة في طلب العلم والمعرفة .

(رابعاً) العصر الذي أظله والبيئة التي اكتنفته :

يقصد بالعصر ما يحيط بالإنسان من ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية وخلقية وغيرها من ظروف البيئة التي يعيش فيها الإنسان ، والتي يكون لها أثر في توجيه الإنسان إلى طلب العلم والمعرفة ، وقد ذكر ذلك الإمام بقوله : " إن البذرة الصالحة لا تنمو إلا بسقي ورعي ، وجو تتغذى منه ، وتعيش فيه ، فكل حي في الوجود يتأثر بالجو الذي يستنشق منه، والبيئة التي تظله ، فإن البيئات تفعل في الإنسان ما لا يفعله المربون ".(٢)

حيث أن الخبرة التي يكتسبها الشخص من خلال بيئته تكون من الواقع ، ومن الأحداث الجارية ، فتكون أقرب للتطبيق الفعلي في مختلف المواقف الحياتية ، لذلك فإن العصر الذي يعيش فيه الشخص والظروف البيئية المحيطة به لها دور هام في توجهات الشخص ، وقد يكون لها أثر إيجابي في توجه الشخص نحو الدراسة والتعلم، وقد يكون لها

(١) **المرجع السابق** : ص ٤٧ .
(٢) محمد أبو زهرة : ابن تيمية حياته وعصره - آراؤه وفقهه ، **مرجع سابق** ، ص ١٠٢ .

أثر سلبي ، لذلك يقول الإمام : " مثل العصر في توجيه العالم أو التأثير فيه كمثل أثر الهواء والشمس في نمو النبات والحيوان ، فإذا كان الحي يتغذى من الهواء الذي يتنفسه ويستفيد من أشعة الشمس التي يعيش فيها ، فكذلك العالم يأخذ من عصره ، ويتأثر بعصره ".(١)

فقد شبه الإمام العصر الذي يعيش فيه الإنسان وينشأ فيه بالجو الذي ينشأ فيه النبات والحيوان ويتغذى منه ، لذلك فإن نشأة الشخص ونموه تتأثر بطبيعة العصر الذي يوجد فيه الشخص وتوجهات ذلك العصر فيما يتصل بقضية البحث والدراسة والتعلم وكذلك الظروف البيئية التي ينشأ فيها الشخص ، وقد قرر ذلك الإمام بقوله: " وحياة الحي تتبع المكان والبيئة التي يعيش فيها، فإن كانت تمده بالغذاء القوي قوي ، وإن ضعفت ضعف ".(٢)

فالعصر الذي يتسم بالتوجه نحو العلم والتعلم ، مع توافر كافة الوسائل اللازمة للبحث والدراسة ، فإن ذلك يعد غذاء نافعا في توجهات الأشخاص نحو الدراسة والتعلم وقد أكد على ذلك الإمام فى موضع آخر بقوله : " العصر الذي يعيش فيه العالم كالجو الذي يعيش فيه النبات ، فكما أن الجو يؤثر في النبات بالنماء أو إطفاء الحياة فيها ، فكذلك العصر بالنسبة للعالم إما أن ينمي علمه وإما أن يميته "(٣) ، فالبيئة والعصر الذي ينشأ فيه الشخص لابد أن تتوافر فيه كل السبل اللازمة للتوجه نحو العلم والدراسة .

من خلال هذا يتضح لنا أن مجموعة هذه العناصر متكاملة مع بعضها البعض سواء استعدادات الشخص ومواهبه أم مجموعة من المعلمين والموجهين أم ميول الشخص ودراساته أم البيئة العلمية المناسبة ، كل هذه العناصر مع بعضها البعض لها أكبر الأثر في

---

(١)محمد أبو زهرة : **ابن حزم حياته وعصره - آراؤه وفقهه** ، ط٢، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٥٤م ، ص ٩٢ .
(٢) _____ : الوحدة الإسلامية ، **مرجع سابق** ، ص ٢١٣ .
(٣) _____ : الإمام زيد حياته وعصره - آراؤه وفقهه ، **مرجع سابق** ، ص ٧٢ .

توجيه الأفراد نحو العلم والمعرفة ، وكثرة ظهور العلماء والنابغين ، وازدهار العلم وتقدمه .

من خلال ما سبق عرضه في هذا الفصل فيما يتصل برأي الإمام حول بعض القضايا الفلسفية يتضح لنا توافق الإمام مع كثير من أقرانه من علماء الإسلام في نظرته إلى الطبيعة الإنسانية ، حيث يري أن الإنسان مخلوق خلقه الله تعالى ميزه وفضله على سائر خلقه حيث أودع فيه مجموعة من الميول والاستعدادات الفكرية التي تمكنه من معرفة واكتشاف ما حوله مما يؤهله لتحقيق الخلافة في هذه الأرض ، كذلك يؤكد الإمام على أن الإنسان يتكون من جزأين جسم وروح ، والجسم هو الجزء المرئي المشاهد وهو يمثل الجانب المادي في الإنسان ، والروح هو الجزء الخفي الغامض وهو يمثل الجانب المعنوي لذلك يؤكد الإمام على ضرورة الوسطية والاعتدال في تلبية الحاجات المادية والمعنوية .

كذلك ينظر الإمام إلى الطبيعة البشرية فيما يتصل بالخير والشر نظرة محايدة حيث يري أنها ليست خيرة بالفطرة كما أنها ليست شريرة بالفطرة وإنما هناك مجموعة من الميول والاستعدادات هي التي توجه الإنسان نحو إدراك الخير أو الشر ، كذلك البيئة التي ينشأ فيها الإنسان ومن يتصل بهم من الأقران والأصحاب لهم أثر كبير في توجهات الشخص .

وعن حقيقة المعرفة وطبيعتها يؤكد الإمام على أن المعرفة هي العلم الجازم المطابق للواقع عن دليل ، حيث تعتمد هذه المعرفة على مجموعة من الأدوات التي زود بها الله الإنسان سواء العقل الذي هو مناط التكليف في الإنسان الذي ميز به الله الإنسان على سائر مخلوقاته لكي يقوم بكافة العمليات العقلية من تفكير وتذكر وانتباه وملاحظة ، ومن خلال مجموعة من الأدوات والحواس التي هي منافذ المعرفة في الإنسان سواء السمع أم البصر أم اللمس ، وهذه المعرفة مأخوذة ومستمدة من مجموعة من المصادر هي الوحي الذي

هو مصدر كل المعارف وقد قسم الإمام هذا الوحي إلى قسمين إما أن يكون اللفظ والمعني من عند الله وهو القرآن الكريم الذي هو المصدر والمرجع ، وإما يكون المعني من عند الله أما اللفظ فهو من عند الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى ، وقد يكون مصدر المعرفة كما ذكر الإمام توجيه قلبي وداخلي نحو حقيقة معينة ، وقد سمى الإمام هذا العلم الذي يرد للإنسان عن طريق الإلهام (بالعلم اللدني) ، ثم يذكر الإمام مصدراً آخر يثرى معارف الإنسان ومعلوماته وهو الكون فهو غني بكثير من الحقائق والمعلومات التي أمر بضرورة النظر فيها مما يساعد في إدراك حقائق الكون ومعرفة أسراره كي يؤدى ذلك شكر النعمة وإخلاص العبودية لله .

obeikandl.com